منهج الإمام القشيري في تفسيره

المسمى بـ(لطائف الإشارات)

د / خالد سعيد أحمد البسيوني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ خاتم رسل الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه . **وبعد** :

فإنَّ التفسير الصوفي كان ولا يزال محَلَّ نظر الدارسين والباحثين نظراً لطرافته وطراوته ، ورقته وعذوبته حيناً ولغرابته وشططه حيناً آخر .

ومن ثَمَّ فإنَّ البعض يتردد كثيراً في الأخذ منه أو الاعتماد عليه بل يعتبره البعضُ غيرَ داخلٍ في التفسير أصلاً ، وإنَّما هي إشارات ووجدانات وخواطر نابعة من نفس الصوفي تبعاً لمجاهدات ورياضات روحية خاصة ، ومثل ذلك غير مأمون العواقب في تفسير كتاب الله — تعالى — .

ويقف آخرون موقفاً طيباً من التفسير الصوفي فيقدرون الأمور بقدرها ويضعون الشروط اللازمة لقبوله إذ هو في النهاية اجتهاد من صاحبه وهو في ذلك الاجتهاد قد يخطئ وقد يصيب .

ومن خلال هذا البحث المتواضع أطوِّف بالقارئ الكريم في رحاب التفسير الصوفي وذلك من خلال دراسة منهج الإمام القشيري في تفسيره المسمى (لطائف الإشارات).

وتعتمد هذه الدراسة على تمهيد ويشتمل على : التعريف بالتفسير الصوفي ، وأقوال العلماء فيه ، والشروط اللازمة لقبوله ، وبعد ذلك أعرج إلى ذكر ترجمة الإمام القشيري ثم دراسة منهجه في تفسيره من خلال عدة مطالب تتصل بهذا التفسير من حيث النواحي اللغوية والبلاغية والعقدية والفقهية وعلوم القرآن .. إلى آخر هذه الأمور التي تضع أيدينا على ما يتصل بهذا التفسير من قريب أو بعيد ،،

والله أسألُ التوفيقَ والسدادَ

داعياً إياه — تعالى — صلاةً وسلاماً دائمين على رسوله المصطفى والنبي المجتبى سيدنا محمدٍ — ﷺ — وعلى آله وصحبه أجمعين ،،

تمهيـــد

بادئ ذي بدء لا بُدَّ من إلقاء الضوء على تعريف التفسير الصــوفي وأقــوال العلماء فيه والشروط اللازمة لقبوله ليكون عوناً على دراسة منهج الإمام القشيري في تفسيره .

أولاً : التعريف بالتفسير الصوفي :

يتوقف تعريف التفسير الصوفي بدرجة كبيرة على معرفة التصوف ، فنحن – لا شك – أمام حالة خاصة من المفاهيم التي ترتبط بالسلوك والمجاهدات .....

ولعلَّ أول ما يلفت النظر في هذا المقام تعدد الأقوال عنـد تحديـد الأصل الاشتقاقـي للفـظة " تصوف " إذ يبدو التردد والاختلاف واضـحاً في القطـع بالأصل الاشتقاقي لها ....

يقول القشيري – رحمه الله –: " هذه التسميةُ غلبت على هذه الطائفة، فيقال: " رجل صوفي "، وللجماعة " صوفيَّة "، ومن يتوصَّل إلى ذلك يقال له " متصوف"، وللجماعة : " متصوفة ".

وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياسٌ ولا اشتقاق . والأظهر فيـه : أنه كاللقب ، فأمَّا قول من قال : إنَّه من الصوف ، ولهذا يقال : تصوَّفَ إذا لـبس الصوف ، كما يقال : تقمَّصَ إذا لبس القميص ، فذلك وجه . ولكـن القـوم لم يختصُّوا بلبس : الصوف !!!

ومن قال : إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ ، فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على وزن الصوفي !!!

ومن قال : إنه مشتق من الصفاء ، فاشتقاق الصوفي مـن الصـفاء بعيـد في مقتضى اللغة . وقول من قال : إنَّه مشتق من الصفِّ – فكـأنهم في الصـفِّ الأول بقلوبهم فالمعنى صحيح ، ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصفِّ .

ثم إنَّ هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق "هـ [1].

وهناك من يرى أنَّ هذه النسبة ترجع إلى شخص يُدعى " صوفة " هو أول من وقف نفسه بالكلية لخدمة الله – تعالى – مجاوراً للكعبة ، واسمه الحقيقي " الغوث بن مُر [2]" ، وممـن اقتـدى به من الزهاد في الانقطاع عمـا سـوى الله سموا الصـوفية " [3].

والمشهور بين أكثر العلماء أنَّه مشتق من الصوف ، وقد نسب الصوفية إلى الصوف لأنهم لبسوه تخشناً وزهداً ، والنسبة إليه صحيحة من الناحية اللغوية ، ولا يكاد يوجد اعتراض إلا أنْ يقال : إنَّ الصوفية ليس كلهم يلبس الصوف ، ويمكـن الجواب بأن الاعتبار بالأعم الأغلب [4].

هذا هو أصل الكلمة ....

وعن وقت ظهور هذا الإطلاق يقول القشيري : " انفرد خواصُّ أهل السُّنة المراعون أنفاسهم مع الله – تعالى – ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسـم " التصوف" ".

١- الرسالة القشيرية ص ٣١٢ – ط/دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١م.

٢- هو الغوثُ بن مُر بن أُدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر . كان يلي الإجازة للناس بالحج من عرفة وولدهُ من بعده وكان يقال له ولولده صوفة ؛ وسبب تلك التسمية أنَّ أم الغوث جعلت رأس الغوث بصوفة وجعلته ربيطاً للكعبة يخدمها.(ينظر : السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٤٤ ط / النور الإسلامية ، والأعلام ٥ – ١٢٣ ، لـ / خير الدين الزركلي – ط – دار العلم للملايين – بيروت – الثامنة ١٩٨٩ م).

٣- تاريخ التصوف الإسلامي ص ١٤ وما بعدها د / قاسم غني . ط / مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠ م ، وينظر : مجموع الفتاوى ١١ – ٦ ، لشيخ الإسلام ابن تيمية – ط – دار عالم الكتب – الرياض .

٤- مدخل إلى مناهج المفسرين ص ٢٠٣ د/ محمد السيد جبريل . ط / أولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧م ، بدون ن .

واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة "هـ"[١].

وعن القصد الذي ينصرف إليه معنى التصوف فهو : إمّا إرسال النفس مع الله — تعالى — على ما يريده ، أو هو مناجاة القلب ، ومحادثة الروح ، وفي هذه المناجاة طهرٌ لمن شاء أنْ يتطهر ، وصفاءٌ لمن أراد التبرؤ من الرجس والدنس .

وفي تلك المحادثة عروجٌ إلى سماء النور والملائكة ، وصعودٌ إلى عالم الإلهام الإلهي ، وما هذا الحديث والنجوى سوى ضرب من التأمل والنظر في ملكوت السموات والأرض .

بيد أنّ الجسم والنفس متلازمان وتوأمان لا ينفصلان ، ولا سبيلَ إلى تهذيب أحدهما بدون الآخر ، فمن شاء لنفسه صفاء ورفعة فلا بُدَّ له أن يتبرأ من الشهوات وملذات البدن[٢].

إلى آخر تلك الأمور التي تجعل من التصوف فكراً وعملاً ودراسة وسلوكاً .

وبالجملة فإنّ هذا اللون من التصوف يسمى بالتصوف العملي .

ويأتي لونٌ آخر من التصوف يعرف بالتصوف النظري حيث تأثر الفكر الصوفي بالأفكار الفلسفية حتى أصبح من بين الصوفية رجال أشبه بالفلاسفة منهم بالمتصوفة يدينون بمسائل فلسفية لا تتفق ومبادئ الشريعة مما أثار عليهم جمهور أهل السنة"[٣].

١- الرسالة القشيرية ص ٢١ .

٢- ينظر : دراسات في التفسير وأصوله ص١٥٢ د / محي الدين بلتاجي — دار مكتبة الهلال — بيروت ١٩٨٧م .

٣- دراسات حول القرآن الكريم ص ٢٠٥ د / إسماعيل أحمد الطحان — ط / مكتبة الأقصى / الطبعة الثالثة سنة ١٤١١هـ / ١٩٩٠م .

وإذا كان التصوف العملي يعني مناجاة القلب ومحادثة الروح بغية العروج إلى سماء النور والملائكة ، وصعوداً إلى عالم الإلهام الإلهي .. الخ .

فالتصوف من حيث مفهومه هذا يضرب بجذوره إلى العصور الأولى للدعوة الإسلامية ، فما مِن شك أنّ الرسول — ﷺ — أول ناسك في الإسلام ، بل ومن قبل بعثته — ﷺ — إعراضاً عن لهو الحياة ، وانصرافاً عن الإغراق في لذائذها ، والتزاماً بالتأمل والتفكر في غار حراء أياماً معلومات ، ثم في ظل الإسلام سلوكاً سوياً على العبادة الشاقة وإقبالاً عليها ، ومثالاً في الأخذ بأسباب النعمة في اعتدال وقصد ، وعكوفاً على التعبد .

وقد ترسَّم جَمعٌ من الصحابة خطاه في هذا منهم : أبو ذر الغفاري ، وصهيب ابن سنان الرومي ، وأبو هريرة الدوسي ، وعمران بن حصين الخزاعي ، وأبو الدرداء الأنصاري ، ممن سموا — لأول أخذهم بهذا السلوك — بالزُّهاد والعُبَّاد ، والنُّسَّاك ، وما شاكل من الإطلاقات ، ولم ينكر مسلكهم هذا منكرٌ لا صاحب الشريعة ، ولا أحد من كبار الصحابة ... وكان أخذهم فيما ساروا فيه من كتاب الله — تعالى — ، وسنة نبيه — ﷺ — والحديث القدسي ، يستلهمون منها جميعاً قواعد التطهير والتزكي ، وقوانين السلوك العملي[١].

وإذا كان الأمر كذلك لدى أصحاب رسول الله — ﷺ — الذين بلغوا الغاية وأوفوا من الإخلاص والصدق والحلم والزهد والتحلي بأكرم الأخلاق ، فما هو سرُّ إفراد طائفة بذاتها باسم الصوفية دون بقية المسلمين ؟ .

أهو تهاون جمهور المسلمين بمضي الزمن وتوالي القرون في الأخذ بما ذكرنا من هذه الأخلاق ؟ والجواب : لا ، بدليل أنّ أجلة العلماء الذين حملوا علم القرآن

١- ينظر : دراسات معاصرة عن الإسلام والمسلمين ص ٥٩ د / محمد غلاب . ط / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية — القاهرة .

والسنة ، وصانوا تراث الأمة كانوا قدوة في مكارم الأخلاق وما نسبوا مع ذلك – في التسمية – ولا تحيزوا إلى جماعة الصوفية .

أهو مبالغتهم في الاجتهاد ورياضة النفس ، وشدهم على أنفسـهم في مجانبة دواعي الدنيا حتى انفردوا بذلك عن غيرهم ؟ ربَّما (١).

وإذا كان هذا حال التصوف العملي أو ما يسميه بعض الدارسين " التصوف الفيضي الإلهي " فإنَّ التصوف النظري – والذي تأثر بالأفكار الفلسفية ، وأصبح لقباً لبعضهم ممن يدينون بمسائل فلسفية لا تتفق ومبادئ الشريعة – هو الذي حمل عليه العلماء ورأوا أنه طريق يفتقد الأدلة والشواهد ..

وعلى أساس هذا البيان للتصوف من حيث اشتقاقه .. وتقسيماته .. نكون قد مهدنا الطريق للوقوف على تعريفٍ للتفسير الصوفي حيث تباين التعريفات له حسب التقسيم السابق له ..

فالتفسير الصوفي ـــ الذي هو على طريقة التصوف النظري ، أعني ذلك التصوف الذي لحقت به أفكارٌ فلسفية ، وثقافات هندية وفارسية ويونانية .. وغيرها ..ـــ

يعرفه بعض العلماء بقوله :" التفسير الصوفي النظري ، هو صرف آيات القرآن عن معانيها الظاهرة إلى تقرير ما وقر في نفس المفسر من فلسفات غريبة ، أو مذاهب في العقيدة يرفضها المسلمون "هـ (٢).

أمَّا عن التفسير الإشاري الفيضي – والمستمد من التصوف العملي – فهو كما ذكر الأستاذ الدكتور / محمد حسين الذهبي :" التفسير الفيضي أو الإرشاري

١- مدخل إلى مناهج المفسرين ص ٢٠٤ – ٢٠٥ د/ محمد السيد جبريل .

٢- المصدر السابق ص ٢١١ .

هو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك ، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة " (١).

وعرفه بعض العلماء بقوله :" هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف ، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد أيضاً "(٢).

قلت : وهذا التعريف ليس من الدقة بمكان إذ يجعل الإشارة الخفية مستقلة بذاتها وهدفاً أصلياً مع أنَّها في الحقيقة لا تعتبر إلا مع ما يظهر .

كما أنَّ ما ورد في آخر التعريف بقولهم :" ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد " ليس دقيقاً في التعريف إذ لا بُدَّ لكلمة الجمع من قيد آخر حتى تكون الإشارة مقبولة وهو أن يكون الجمع بوجه من الوجوه الشرعية .

والتعريف الدقيق إذاً هو ما ذكره الأستاذ الدكتور / عبد الغفور محمود مصطفى – رحمه الله رحمة واسعة – في كتابه الأصيل والدخيل :" التفسير الإشاري هو : تأويل آيات القرآن الكريم على غير ما يظهر منها – مضافاً إلى ما يظهر – بمقتضى إشارات خفية تظهر لأهل العلم والسلوك تقوم على التطابق بينها وبين الظواهر المرادة من الآيات القرآنية بوجه من الوجوه الشرعية " (٣).

ومن الواضح أنَّ القيود الواردة في هذا التعريف تميِّز بين تفسير صوفي يستمد معارفه من فلسفات غريبة وثقافات لا تتفق مع صحيح العقل والنقل ، وبين تفسير

١- التفسير والمفسرون ج ٢ – ٣٨١ لـ/الأستاذ الدكتور / محمد حسين الذهبي . مكتبة وهبة – السادسة . ١٤١٦ هـــ ١٩٩٥ م .

٢- روائع البيان في علوم القرآن ص ١٨٥ د/ محمد محمد إبراهيم العسال – دار الطباعة المحمدية – القاهرة – الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م .

٣- الأصيل والدخيل في تفسير القرآن وتأويله رواية ودراية – د/ عبد الغفور محمود مصطفى – ص ١٦٨ الأولى ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م نقلاً من كتاب أصول التفسير وقواعده للشيخ خالد العك .

صوفي يستمد معارفه من القرآن والسنة ، ومن لغة تحوي بين جنباتها الحقيقة والمجاز.. ثم رياضة روحية يفيض الله بها على صاحبها معارف وفيوضات تتراءى من خلالها عبارات وإرشارات تختبئ خلف النصوص.

ولئلا يختلط هذا بذاك فقد وضع العلماء فروقاً بين النوعين ثم شروطاً للقبول.

أمّا عن الفروق بينهما فمن وجهين :

أولاً : أنّ التفسير الصوفي النظري ينبني على مقدمات علمية تنقدح في ذهن الصوفي أولاً ، ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك .

أمّا التفسير الإرشاري .. فلا يرتكز على مقدمات علمية ، بل يرتكز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفي نفسه حتى يصل إلى درجة تنكشف له فيها من سجف [1] العبارات هذه الإشارات القدسية ، وتنهل على قلبه من سُحُب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية .

ثانياً : أنّ التفسير الصوفي النظري يرى صاحبُه أنّه كل ماتحتمله الآية من المعاني وليس وراءه معنىً آخر يمكن أنْ تحمل الآية عليه ..

أمّا التفسير الإشاري : فلا يرى الصوفي أنّه كل ما يراد من الآية بل يرى أنّ هناك معنىً آخر تحتمله الآية ويراد منها أولاً وقبل كل شيء ، وذلك هو المعنى الظاهر الذي ينساق إليه الذهن قبل غيره . [2]

تلك هي الفروق بين النوعين ولا شك أنّ التفسير الصوفي النظري بهذه الكيفية لا يعدُّ من التفسير في شيء ، وتسميته تفسيراً تعدُّ من باب التجوز .

١- السجف : بفتح السين وسكون الجيم وبكسر : الستر (القاموس المحيط ٣- ٢١٩ لمجد الدين الفيروز آبادي ، نشر مؤسسة الرسالة – الثانية ١٤٠٧ هـ) .
٢- التفسير والمفسرون ج ٢ ــ ٣٨١ .

فتنزيل الآيات على ما يراه الصوفي – أو حتى غير الصوفي – في نفسه وعدم احتمالها لمعنى آخر غير الذي يراه من الخطورة بمكان .. ، ولا يخفى صلة الباطنية وغيرها من الفرق المنحرفة بهذا اللون من التفسير [1] .

كما أنّ التفسير الإشاري بهذه الكيفية – لدى المحققين – لا يختص بقومٍ دون قوم ، وإذا ذكر الصوفية في التفسير الإشاري أو صار التفسير الإشاري خاصاً بهم فهذا المصير والذكر منا لا منهم [2] .

ومّما يؤكد ذلك ما ورد عن الصحابة الكرام من أخبار وآثار تدل على معرفتهم بالتفسير الإشاري دون تخصيصه بفئة معينة أو تمييز له عن غيره ..

غاية الأمر أنهم كانوا يسمون ذلك باطن القرآن الكريم ، وهي تسمية تلقوها عن رسول الله ــ ﷺ ــ حيث قال :" أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن [3] "[4] .

١- يقول الأستاذ الدكتور / محمد حسين الذهبي في الحكم على التفسير الصوفي النظري : نستطيع أن نقرر في صراحة واطمئنان : أنّ التفسير الصوفي النظري تفسيرٍ يخرج بالقرآن ــ في الغالب ــ عن هدفه الذي يرمي إليه !!.. يقصد القرآن هدفاً معينا بنصوصه وآياته ، ويقصد الصوفي هدفاً معيناً بأبحاثه ونظرياته . وقد يكون بين الهدفين تنافر وتضاد ... هـ(التفسير والمفسرون ج ٢ ــ ٣٧٤).
٢- الأصيل والدخيل في تفسير القرآن وتأويله رواية ودراية ص ١٧٤ .
٣- رواه ابن حبان في الصحيح . قال محققه : إسناده حسن . ، ينظر (الإحسان في ترتيب ابن حبان لابن بلبان ط / مؤسسة الرسالة ــ بيروت ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م تحقيق : شعيب الأرنؤوط).
قال الهيثمي :" رواه البزار وأبو نعيم في الكبير وفي رواية عنده :" لكل حرف منها ظهر وبطن " ورواه الطبراني في الأوسط باختصار آخره ، ورجال أحدهما ثقات ، ورواية البزار عن محمد بن عجلان عن أبي إسحاق . قال في آخرها : لم يرو محمد بن عجلان عن إبراهيم الهجري غير هذا الحديث ، قال الهيثمي : (ومحمد بن عجلان) إنّما روى عن أبي إسحاق السبيعي ، فإن كان هو أبو إسحاق السبيعي فرجال البزار أيضاً ثقات "هـ.(مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٧ – ١٥٢ لـ/ الإمام الهيثمي . مكتبة القدس)
٤- اختلف العلماء في بيان معنى أنّ القرآن له ظاهر وباطن : فقيل : ظاهرها : أي الآية : لفظها، وباطنها : تأويلها . وقيل : إنّ القصص التي قصها الله ــ تعالى ــ عن الأمم الماضية وما عاقبهم بها ، ظاهرها : الإخبار بهلاك الأولين ، أما باطنها : فهو وعظ الآخرين ، وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم ، فيحل بهم مثل ما حل بهم . وقيل : إنّ ظاهرها ما ظهر من معانيها لأهل العلم، وباطنها ما تضمنه من الأسرار التي أطلع الله عليها أهل الحقائق.. (التفسير والمفسرون ٢ / ٣٨٢ ــ ٣٨٣) .

ومن الآثار عن الصحابة في هذا الشأن ما قاله ابن عباس – ﵁ –:" القرآن تحت العرش له ظهر وبطن يحاج العباد "(١).

وقال أبو الدرداء – ﵁ –:" لا يفقه الرجل كلَّ الفقه حتى يجعل للقرآن وجوهاً "(٢).

وقال ابن مسعود – ﵁ –:" من أراد علم الأولين والآخرين فليثور(٣) القرآن "(٤).

١– كنز العمال (أبو نعيم عن ابن عباس ٢٤٦٩) للعلامة / علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري . بيروت – الخامسة – ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م . و(نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول ٤ – ١٦٨ الأصل الثمانون والمئتان في الثلاثة التي تحت العرش . للحكيم الترمذي ط/ الريان ـ القاهرة] وفي مسند الفردوس ٣ـ ٢٢٨ الديلمي . ط / الريان): بلفظ :" القرآن ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجوهه .

٢– أخرجه معمر بن راشد في الجامع (الملحق بمصنف عبد الرزاق) ١١ – ٢٥٥ بيروت – الثانية ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣ م محقق و (أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٦ – ٣٢٤ رقم ٣٠١٦٣ ط / دار الفكر ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م) و (ابن سعد في الطبقات ٢ – ٣٥٧ بيروت).

٣– الثور : الهيجان ، .. يقال : ثار الشئ ثوراً وثوراناً وتثور : هاج ... وثار الدخان والغبار وغيرهما : يثور ثوراً وثُؤوراً وثوراناً : ظهر وسطع . وثور القرآن : بحث عن معانيه وعن علمه قال شمر : تثوير القرآن : قراءته ومناقشة العلماء به في تفسيره ومعانيه ، وقيل : لينقر عنه ويفكر في معانيه وتفسيره وقراءته .(لسان العرب ٤ / ١٠٨ ـ ١١٠ لابن منظور – ط – دار صادر – بيروت – الثالثة ١٤١٤هـ القاهرة).

٤– أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٦ – ١٢٦ رقم ٣٠٠١٨ ، والطبراني في الكبير ٩ – ١٥٣ رقم ٨٦٦٤ ط / الموصل / الثانية ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٣ م ، والبيهقي في الشعب ٢ – ٣٣٢ رقم ١٩٦٠ الطبعة الأولى ١٤١٠ بيروت) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧ – ١٦٥ :" رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدهما رجال الصحيح "هـ.

ومن نظرهم في باطن القرآن أو من تفسيرهم للقرآن تفسيراً إشارياً ما رواه البخاري بسنده عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال :" كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكأنَّ بعضهم وجَدَ عليَّ في نفسه فقال : لِمَ تُدخل هذا معنا ، ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من حيث علمتم ، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم . قال : ما تقولون في قوله ـ تعالى ـ :﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) ﴾؟

فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً فقال لي : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا . قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله ـ ﷺ ـ أعلمه له قال :﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فقال عمر – ﵁ – ما أعلم منها إلا ما تقول "(٢).

فبعض الصحابة لم يفهم من السورة أكثر من معناها الظاهر أمَّا ابن عباس وعمر – رضي الله عنهما – فقد فهما معنىً آخر وراء الظاهر ، هو المعنى الباطن الذي تدل عليه السورة بطريقة الإشارة .

فالنظر في القرآن الكريم لبيان معانيه – كما هو واضح من هذه الآثار – لا يتوقف عند ظاهر آياته بل يتعدى إلى باطنها .

وإذا استخرج باطن الآية " على قدر الطاقة " عرض على شروط القبول فما وافقها فهو حسن مقبول ، وما لم يوافقها فهو مردود ملفوظ ..

وعن شروط القبول يقول ابن القيم – رحمه الله –:" وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول : تفسير على اللفظ ، وهو الذي ينحو إليه المتأخرون ، وتفسير على

---

١ - سورة النصر آية رقم ١ .

٢- رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير باب (فسبح بحمد ربك واستغفره أنه كان توابا) رقم ٤٩٧٠ علي هامش الفتح ٨ – ٦٠٦ .

المعنى ، وهو الذي يذكره السلف ، وتفسير على الإشارة وهو الذي ينحـو إليـه تفسير الصوفية وغيرهم وهذا لا بأس به بأربعة شروط :

١ – ألا يناقض معنى الآية .

٢ – وأن يكون معنىً صحيحاً في نفسه .

٣ – وأن يكون في اللفظ إشعار به .

٤ – وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم ، فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطاً حسناً "هـ(١).

وقد وضع الإمامُ ابن تيمية تقسيماً ضبط من خلاله إشارات الصوفية ومتى تعتبر ومتى لا تعتبر فقال – رحمه الله –:" إشارات الصوفية التي يشيرون بها تنقسم إلى إشارة حالية ؛ وهي إشارتهم بالقلوب وذلك هو الذي امتازوا به ..

وتنقسم إلى الإشارات المتعلقة بالأقوال مثل ما يأخذونها من القرآن ونحوه ، فتلك الإشارات هي من باب الاعتبار والقياس ، وإلحاق ما ليس بمنصوص بالمنصوص ، مثل الاعتبار والقياس الذي يستعمله الفقهاء في الأحكام ، لكن هذا يستعمل في الترغيب والترهيب وفضائل الأعمال ودرجات الرجال ، ونحو ذلك .

فإنْ كانت الإشارات اعتبارية من جنس القياس الصحيح كانت حسنة مقبولة ، وإن كانت كالقياس الضعيف كان لها حكمه وإنْ كان تحريفاً للكلام على غير تأويله كان من جنس كلام القرامطة والباطنية والجهمية فتدبر "(٢).

فهو إذنْ منهج علميّ ... فإنْ كان إرشاداً وتعليماً للسلوك القويم والخلق العظيم والأدب الحسن فهو إرشاد وتعليم وأدب يدعو إليه القرآن بإشاراته وإيماءاته.. فإن أخذته على أنه انطلاق من القرآن فهو تفسير ، وإنْ راعيت الذين

١– التبيان في أقسام القرآن ١ – ٥٠ – لـ/ ابن قيم الجوزية . ط / دار الفكر .

٢– تفسير سورة النور لابن تيمية ص ١٢٨ – ١٢٩ ط – دار مطابع الشعب .

برعوا فيه سميته تصوفاً ، وما كان من ضعيفٍ أو تحريفٍ فهو مردود ، وكلُّ إنسان يؤخذ منه ويرد إلا رسول الله – ﷺ – وذلك موجود عند جميع الطوائف من صوفية وفقهاء .. الخ .(١)

فالقبول والرّد مرهون بقواعد وأصول وهي سارية على الجميع فلماذا الصوفية من دون غيرهم ينظر إليهم البعض نظرة ريبة أو استحياء ؟ !

" فالفقيه مثلاً قد يأتي بقول ضعيف أو باطل ، فهل يعني هذا رد كلام الفقهاء ... الخ ؟ اللهمَّ لا ، بل نأخذ ما صفا ولا نحتمل بالعفو في دين الله وتفسير كتابه ما كدر ، وعندنا العذب الزلال الصافي "(٢).

قال ابن عطاء الله السكندري (٣)– رحمه الله –:" اعلم أنَّ تفسير هذه الطائفة – يعني الصوفية – لكلام الله – تعالى – وكلام رسوله – ﷺ – بالمعاني الغريبة ليس إحالة للظاهر عن ظاهره ، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له ، ودلت عليه في عرف اللسان ، وثم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه .

وقد جاء في الحديث :" لكل آية ظهر وبطن ، فلا يصدنك من تلقي هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة : هذا إحالة لكلام الله وكلام رسوله ، فليس ذلك بإحالة ، وإنما إحالة لو قالوا : لا معنى للآية إلا هذا . وهم لم يقولوا

١– الأصيل والدخيل في تفسير القرآن وتأويله رواية ودراية ص ١٧٥ .

٢– ينظر : المصدر السابق – هامش ص ١٧٥ .

٣– ابن عطاء الله الإسكندري (٠٠٠ – ٧٠٩ هـ = ٠٠٠ – ١٣٠٩ م) أحمد بن محمد بن عبد الكريم، أبو الفضل تاج الدين ، ابن عطاء الله شيخه : أبو الحسن الشاذلي الذي نقل عنه أو سمع منه . له كتاب الحكم في الحكم والمواعظ .(الأعلام ١ – ٢٢١ وكشف الظنون ٢ – ١٥٥٤).

ذلك ، بل يقرون الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها ، ويفهمون عن الله ــ تعالى ــ ما أفهمهم "(١).

وإذا كان هذا كلام المحققين من الصوفية فإنّه أيضاً كلام المحققين من غير الصوفية .

يقول سعد الدين التفتازاني (٢) في شرحه للعقائد النسفية :" سميت الملاحدة باطنية لادعائهم أنّ النصوصَ ليست على ظواهرها ، بل لها معان باطنية لا يعرفها إلا المعلم ، وقصدهم بذلك : نفي الشريعة بالكلية .

قال : وأمّا ما يذهب إليه بعضُ المحققين من أنّ النصوص على ظواهرها ، ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك ، يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة ، فهو من كمال الإيمان ، ومحض العرفان "هـ(٣).

١- الإتقان ٤ - ١٩٧ للإمام السيوطي . ط / مكتبة دار التراث ٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . نقلاً من كتاب : لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري في مناقب شيخه أبي العباس المرسي – ط . تونس ١٣٠٤هـ كما ذكر محقق كتاب الإتقان .

٢- السعد التفتازاني (٧١٢ - ٧٩٣ هـ = ١٣١٢ - ١٣٩٠ م) مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني ، سعد الدين : من أئمة العربية والبيان والمنطق . ولد بتفتازان (من بلاد خراسان) وأقام بسرخس ، أبعده = = تيمورلنك إلى سمرقند ، فتوفى فيها ، ودفن في سرخس . من كتبه (تهذيب المنطق) و (المطول " شرح تلخيص مفتاح العلوم) في البلاغة، و (المختصر) اختصر به شرح تلخيص المفتاح ، و (مقاصد الطالبين) في الكلام و (شرح العقائد النسفية) و (حاشية) على الكشاف ..[معجم المفسرين ٢ ــ ٦٧٠ تأليف / عادل نويهض – ط – مؤسسة نويهض الثقافية – الأولى ١٤٠٤ هـ ــ ١٩٨٤ م ،والأعلام ٧ ــ ٢١٩ .

٣- شرح العقائد النسفية ص ١٤٩ لـ/ سعد الدين التفتازاني ، ومعه كتاب العقائد النسفية لـ/ نجم الدين النسفي السمرقندي – ط – المكتبة الأزهرية للتراث – الأولى ١٤٢١ هـ ــ ٢٠٠٠ م.

ومن التفاسير التي اشتهرت بهذا الاتجاه – إلى جانب تفسير اللطائف والذي سيأتي الحديث عنه – تفسير سهل التستري المسمى " تفسير القرآن العظيم " فهو أول ما وصل إلينا ممثلاً هذا الاتجاه .

وصاحب هذا التفسير هو سهل بن عبد الله التستري (١) أحد تلامذة ذي النون المصري (٢) وتفسيره المشار إليه تفسير صغير .. وقد ذكر فيه منهجه الصوفي في التفسير فقال :" ما من آية في القرآن إلا ولها أربعة معان ، ظاهر وباطن ، وحدّ ومطلع ، فالظاهر التلاوة والباطن الفهم ، والحدّ حلالها وحرامها ، والمطلع إشراف القلب على المراد بها فقهاً من الله ــ ﷻ ــ ، فالعلم الظاهر علم عام ، والفهم لباطنه ، والمراد به خاص "(٣).

كما يوضح المقصود بالباطن عنده في موضع آخر بقوله :" إنّ الله ــ تعالى ــ ما استولى وليّاً من أمة محمد ــ ﷺ ــ إلاّ علّمه القرآن إمّا ظاهراً ، وإمّا باطناً ، قيل له : إنّ الظاهر نعرفه فالباطن ما هو ؟ قال : فهمه وإن فهمه لهو المراد "هـ(٤).

١- سهل التستري (٢٠٠ - ٢٨٣ هـ = ٨١٥ - ٨٩٦ م) سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله التستري ، أبو محمد : أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال . له كتاب في (تفسير القرآن العظيم) مختصر . وكتاب (رقائق المحبين) وغير ذلك .(معجم المفسرين ١ــ ٢١٨).

٢- ذو النون المصري (٠٠٠ - ٢٤٥ هـ = ٠٠٠ - ٨٥٩ م) ثوبان بن إبراهيم الأخميمي المصري ، أبو الفياض ، أو أبو الفيض : أحد الزهاد العباد المشهورين . من أهل مصر . نوبي الأصل من الموالي . كانت له فصاحة وحكمة وشعر . وهو أول من تكلم بمصر في (ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية) فأنكر عليه عبد الله بن عبد الحكم . واتهمه المتوكل العباسي بالزندقة ، فاستحضره إليه وسمع كلامه . ثم أطلقه ، فعاد إلى مصر . وتوفي بجيزتها .(الأعلام ٢ ــ ١٠٢).

٣- تفسير القرآن العظيم للتستري ص ١٦ ط / دار الكتب العلمية . بيروت ١٤٢٣ هـ ــ ٢٠٠٢ م.

٤- المصدر السابق ص ١٩ .

فالباطن عند التستري بهذا المعنى هو فهم حقائقه ، وتلك الحقائق التي تخفى على غير الصوفية لا تكون إلا بكشف ، والكشف لا يتوصل إليه إلا بسلوك ، والسلوك رياضة روحية تأملية ينتقل فيها الصوفي من مقام إلى مقام حتى يتصل بالملأ الأعلى حين تتكشف له الحقائق بطريقة الإلهام .

ومن أمثلة تفسيرات التستري للقرآن التي تجمع بين الظاهر والباطن قوله في تفسير قول الله — تعالى —﴿ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا[١] ﴾ :" أمّا ظاهرها فالجار الجنب : البعيد الأجنبي ، والصاحب بالجنب : هو الرفيق في السفر ، وقد قيل : الزوجة ، وابن السبيل : الضعيف ، وأما باطنها ، فالجار ذو القربى هو القلب ، والجار الجنب هو الطبيعة ، والصاحب بالجنب هو العقل المهتدي بالشريعة ، وابن السبيل هو الجوارح المطيعة لله — تعالى — هذا باطن الآية "هـ[٢] .

فها هو التستري يجمع بين ظاهر الآية وبين ما يراه من باطنها ، والذي هو من قبيل التشبيهات والاستعارات وضرب الأمثال والرموز عند من يقبل هذا منهم ..

وينبغي أن نشير قبل دراسة منهج القشيري في تفسيره الصوفي إلى أنّ بعض العلماء – رغم الشروط السابق ذكرها واحتياط العلماء في الأخذ بهذا النوع من التفسير – لا يسمي ما جاء عن الصوفية تفسيراً ، كابن الصلاح[٣] فهو يظن بمن

١– سورة النساء آية رقم : ٣٦ .
٢– تفسير القرآن العظيم للتستري ص ٥٣
٣– هو : عثمان بن عبد الرحمن (صلاح الدين) ابن عثمان بن موسى بن أبي النصر النصري الشهرزوري الكردي الشرخاني ، أبو عمرو ، تقي الدين ، المعروف بابن الصلاح . ولد في شرخان " (قرب شهرزور) وانتقل إلى الموصل ثم إلى خراسان فبيت المقدس حيث ولي التدريس في الصلاحية وانتقل إلى دمشق فولاه الملك الأشرف تدريس دار الحديث وتوفي بها سنة ثلاث وأربعين وستمائة (الأعلام ٤ — ٢٠٧).

يوثق به من الصوفية – إذا قال شيئاً من ذلك – أنه لم يذكره على أنّه تفسير ، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة ، وإنما ذلك منهم إيراد لنظير ما ورد به القرآن ، فإن النظير يذكر بالنظير .." [١] .

وأيضاً قال الدهلوي [٢]:" وأما إشارات الصوفية واعتباراتهم فليست في الحقيقة من التفسير ، وإنما يظهر على قلب السالك عند استماع القرآن أشياء ، وتتولد له في نظم القرآن " [٣]

قلت : وإذا كان النظير يذكر بالنظير كما أنّ الإشارات تتولد في نظم القرآن؛ فهذا في الحقيقة شهادة للقوم وليس شهادة عليهم ..

كما أنّ الدهلوي نفسه عدَّ فن الاعتبار معتبراً — وإن كان لم يصرح بأن ما يستنبط من هذا الطريق من كتاب الله — تعالى — يسمى ذلك تفسيراً ..—

يقول رحمه الله — :" إنّ حضرته — ﷺ — جعل فنَّ الاعتبار معتبراً وسلك ذلك الطريق لتكون سنة لعلماء الأمة ويكون ذلك فتحاً لباب ما وهب لهم من

١– ينظر الإتقان ٤ — ١٩٥ .
٢– الدهلوي { شاه ولي الله }.[١١١٠ — ١١٧٦ هـ = ١٦٩٩ — ١٧٦٢ م] أحمد بن عبد الرحيم الفاروقي الدهلوي الهندي ، أبو عبد العزيز ، الملقب " شاه ولي الله " فقيه حنفي من المحدثين ، من أهل دهلي بالهند ... أحي الله به وبأولاده وأولاد بنته وتلاميذهم الحديث والسنةَ بالهند بعد مواتهما ، وعلى كتبه وأسانيده المدار في تلك الديار ...[الأعلام ١— ١٤٤].
٣– الفوز الكبير في أصول التفسير ص ١٠٦ لـ / حجة الله الدهلوي . ط دار قتيبة — بيروت — دمشق ١٤٠٩ هـ — ١٩٨٩ م .

العلوم كآية (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى [١]) قرأها في مسألة القدر بالتمثيل [٢] ، وإن كان منطوق الآية أنَّ من عمل هذه الأعمال تهديه إلى طريق الجنة والنعيم ، ومن عمل بضدها تفتح له طريق النار والتعذيب ، ولكن يمكن أن يعلم بطريق الاعتبار أنَّ كلَّ واحد خلق لحالة تجري عليه تلك الحالة من حيث يدري أو لا يدري ـ فبهذا الاعتبار وقع لهذه الآية ارتباط بمسألة القدر ـــ وكذلك آية (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا [٣]) فمنطوقها أنه اطلع على البِرِّ والإثم ، ولكن بين خلق الصورة العلمية بالبر والإثم ، وخلق البر والإثم إجمالاً في وقت نفخ الروح مشابهة فيمكن الاستشهاد بهذه الآية في هذه المسألة بالاعتبار "هـ [٤] .

١- سورة الليل آية رقم : ٥ .

٢- يشير ـــ رحمه الله ـــ إلى ما ورد في الصحيحين عن علي ـــ ﷺ ـــ قال : كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا النبي ـــ ﷺ ـــ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال (ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار وإلا قد كتب شقية أو سعيدة) . فقال رجل يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة وأما من كان منا من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ؟ قال (أما أهل السعادة فييسرون لعمل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل الشقاوة) . ثم قرأ { فأما من أعطى واتقى } الآية .(أخرجه البخاري في مواضع عدة من صحيحه منها : كتاب الجنائز : باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله رقم : ١٢٩٦ ، وكتاب التفسير : باب قوله { فأما من أعطى واتقى } رقم : ٤٦٦١ ، وكتاب الأدب : باب الرجل ينكت الشيء بيده في الأرض رقم : ٥٨٦٣ ، وكتاب القدر باب { وكان أمر الله قدرا مقدورا } رقم : ٦٢٣١ ، وأخرجه مسلم في القدر باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابه ورزقه . رقم : ٢٦٤٧).

٣- سورة الشمس آية رقم :٧ .

٤- الفوز الكبير في أصول التفسير ص ١٠٦ .

ومِنْ ثَمَّ فإنَّ أقلَّ ما يقال في مثل كلام الدهلوي السابق ذكره : إنه يخفف الوطأة ثم يقبل عن القوم ما يقولون ..

ولا يخفى الأخذ بنظام التفسير النقلي والعقلي والصوفي ـ جميعاً ـ في روح المعاني أو في تفسير النيسابوري ـ مثلاً ...

فلا يصدَّنَّك عن الأصيل عند قوم ما يكون عندهم من خطأٍ أو دخل ، وإلا فلا عصمة إلا من عصم الله ـــ تعالى ـــ [١] .

فالتفسير الصوفي أو غيره يخضع لقوانين الشريعة ، وأدلة العقل والمنطق فما وافق فنعمًا هو ، وما خالف فليس بعد الحق إلا الضلال ..

وقد كان اختياري لدراسة منهج القشيري في تفسيره .. انطلاقاً مما لاحظته من التزامه بالقواعد والأصول ، ومدى مراعاته للدلالات اللفظية والحالية ، وأنَّ مهارة الرجل تكمن ـ حسب اجتهاده ـ في التعرف على ما يتوارى خلف ظاهر اللفظ من معان لا تخرج في الحقيقة عن مقاصد الآيات ثم التعبير عن ذلك بأجمل العبارات .

فنحن من خلال قراءة اللطائف نشعر أنَّ كل صغيرة وكبيرة في علوم الصوفية لها أصل من القرآن .. ونكاد نقول : إنَّ كتاب اللطائف خير ما سطر من كتب الصوفية في التفسير وخير ما أنتجته قرائح الصوفية في شتى العصور .

ولا غرابة في هذا إذا علمنا أنَّ القشيري من أهل السنة ومن أرباب الفصاحة والبلاغة ، وتلك ترجمة موجزة عنه قبل تناول تفسيره من حيث المنهج ..

التعريف بالإمام القشيري ـ رحمه الله ـ :

صاحب كتاب اللطائف هو : عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري ـ رحمه الله ـ. ولد في ربيع الأول عام ٣٧٦ هـ الموافق يوليو ٩٨٦م . وتوفي يوم الأحد السادس عشر من ربيع الآخر ٤٦٥ .

١- ينظر : الأصيل والدخيل في تفسير القرآن وتأويله رواية ودراية ص ١٦٧ .

وهو عربي النسب من جهة أبيه فهو من قبيلة قشير العدنانية المتصلة بهوازن ، كذلك فإنَّ القشيري عربي النسب من جهة أمه فهي سُلَمية وأخوها أبو عقيل السُّلَمي من وجوه دهاقين أستوا [1]، وأستوا هي الناحية التي ولد فيها القشيري .

بدأ بدروس الحساب في نيسابور ثم اجتذبته مجالس الفقه والكلام والحديث والتفسير والأدب ، وكان من شيوخه ابن فورك [2]، ومحمد بن أبي بكر الطوسي [3]، وأبي إسحاق الإسفراييني [4] وغيرهم .

ونبغ الإمامُ القشيري في العلوم العقلية وظهر أثرُ ذلك عليه فاستوعب معظم ما صنف الباقلاني [5] ..

١- أُستُوا : بضم الهمزة وسكون السين المهملة وضم التاء المثناة من فوقها أو فتحها وبعدها واو ثم ألف ، وهي ناحية بنيسابور كثيرة القرى خرج منها جماعة من العلماء .(وفيات الأعيان ٣ـ ٢٠٨ لـ/ ابن خلكان . ط/ دار صادر – بيروت ١٩٠٠ م تحقيق : إحسان عباس).

٢- هو محمد بن الحسن بن فُورَك الأنصاري الأصبهاني أبو بكر ، واعظ عالم بالأصول والكلام من علماء الشافعية ، بلغت تصانيفه في أصول الدين وأصول الفقه ، ومعاني القرآن قريباً من المائة منها : مشكل الحديث وغريبه وحل الآيات المتشابهات ، وغريب القرآن ، ورسالة في علم التوحيد وغيرها توفى ٤٠٦هـ = ١٠٢٥م (طبقات الشافعية لابن السبكي ٢-٤٢٤ بيروت . والأعلام ٦ – ٨٣).

٣- هو : محمد بن بكر بن محمد ، أبو بكر الطوسي ، النوقاني : إمام أصحاب الشافعي بنيسابور ، ترك طلب الجاه والدخول على السلاطين .. توفي سنة عشرين وأربعمائة .(طبقات الشافعية ٢ ـ ٤١٩).

٤- هو أبو إسحاق الإسفراييني ، إبراهيم بن محمد الملقب بركن الدين الفقيه الشافعي المتكلم الأصولي ، تبحر في العلوم و جمع شرائط الإمامة له التصانيف الكثيرة ومنها كتابه : جامع الحلي في أصول الدين والرد على الملحدين ، بنيت له المدرسة المشهورة بنيسابور ، توفي سنة ثماني عشرة وأربعمائة هـ . وفيات الأعيان ١-٤

٥- هو : محمد بن الطيب أبو بكر الباقلاني – رأس المتكلمين على مذهب الشافعي وهو من أكثر الناس كلاماً وتصنيفاً . توفي سنة ثلاث وأربعمائة (الأعلام ٦ – ١٧٦).

وبينما كان القشيري منصرفاً بكل همته إلى هذا اللون من الدراسة .. ساقه القدرُ ذات يوم إلى مجلس أبي علي الدقاق [1] وهو يعظ على طريقة الصوفية ؛ يتحدث في الرياضيات والمجاهدات ، والأحوال والكشوفات والأذواق والمواجيد.. فانجذب القشيري إلى هذا الحديث وصاحبه ..

" ومضى القشيري يجمع بين الدراستين ونال القشيري – بمثابرته وطموحه واستقامته وتواضعه – رضا الدقاق وإعجابه ومِنْ ثمَّ اختاره لكريمته فاطمة مؤثراً إياه على سائر أقربائها الذين تقدموا لخطبتها ..

وتُجمع كتب التراجم على أنَّ الإمام القشيري كان من حيث المذهب الفقهي شافعياً ومن حيث العقيدة أو الأصول أشعرياً وسنياً متحفظاً.. [2].

ولا شك أنَّ لهذا كله أثراً طبع على مؤلفاته وخاصة اللطائف .. كما سنظهره في حينه ..

وقد تعرض القشيري كغيره من العلماء المخلصين للمحن والفتن فكان وبحق مثالاً للمصابرة والمجاهدة .. وخير ذلك ما حدث أيام السلطان طغرل [3] الذي كان

١- هو : الحسن بن علي بن محمد بن إسحاق بن عبد الرحيم بن أحمد الأستاذ أبو علي الدقاق : لسان وقته ، وإمام عصره ، نيسابوري الأصل ، تعلم العربية ، وحصّل علم الأصول .. من كلامه : تكلم الناس في الفقر والغنى أيهما أفضل ؟ وعندي : الأفضل أن يعطى الرجل كفايته ، ثم يصان فيه . توفي سنة خمس وأربعمائة . (طبقات الشافعية ٣ ـ ١٦).

٢- ينظر : وفيات الأعيان ٣ – ٢٠٧ و فوات الوفيات ٢ ـ ٣١٠ لـ/ محمد بن شاكر الكتبي . ط : دار صادر – بيروت . الطبعة : الأولى – ١٩٧٤ م . تحقيق : إحسان عباس ، وسير أعلام النبلاء ١٨ ـ ٢٢٧ .

٣- هو محمد بن ميكائيل ، السلطان الكبير ، ركن الدولة أبو طالب من بر بخارى استولى على العراق في سنة ٤٤٧ هـ وتحبب إلى الرعية بعدل مشوب بجور وكان في نفسه ينطوي على حلم وكرم ولما تمهدت البلاد له خطب بنت الخليفة القائم فتألم القائم واستعفى فلم يعف فزوَّجه بها . مات بالري سنة خمس وخمسين وأربعمائة هـ.(سير أعلام النبلاء ١٨ – ١٠٧ لـ / الإمام الذهبي – مؤسسة الرسالة / بيروت – ط/ التاسعة ١٤١٣هـ. و الأعلام ٧ – ١٢٠).

سنياً حنفياً ووزيره أبي نصر الكندري [١] الذي كان معتزلياً رافضياً خبيث العقيدة ذا آراء مسرفة في التشبيه وخلق الأفعال والقدرة وكان متعصباً في ذلك أشد التعصب .

وكان أبو نصر هذا يضمر الحسدَ والشرَّ للقشيري – وأمثاله من العلماء – بسبب ما عرف عنهم من تعلق بالمذهب الأشعري ، والذود عنه ، وخشية أنْ يقع اختيار السلطان على القشيري للوزارة من دونه ..

فمضى يلفق – لدى السلطان – عنه التهم ... وكانت النتيجة أنْ جاء الأمر من قبل السلطان بالقبض على القشيري وإمام الحرمين [٢] والرئيس الفراتي [٣] وأبي سهل الموفق [٤] ونفيهم ومنعهم من المحافل .

١- هو : محمد بن منصور بن محمد الكندري أبو نصر (٤١٢ – ٤٥٦ هـ = ١٠٢١ – ١٠٦٤ م)، وزير السلطان طغرلبك . كان أحد رجال الدهر سؤدداً وجوداً وشهامة وكتابة .. كان معتزلياً ،له النظم والنثر ، فلمّا مات طغرلبك ، وزر لألب آرسلان قليلاً . قتل بمرو الروذ، وله اثنتان وأربعون سنة . (سير أعلام النبلاء ١٨ – ١١٤ والأعلام ٧ – ١١١).

٢- هو : عبد الملك بن الشيخ أبي محمد عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيوية ، أبو المعالي الجويني وجوين من أعمال نيسابور الملقب بإمام الحرمين لمجاورته بمكة أربع سنين وولد سنة تسع عشرة وأربعمائة وتوفي سنة ثمان وسبعين وأربعمائة هـ (الأعلام ٤ – ١٦٠).

٣- هو: أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي بن أحمد الرئيس أبو الفضل ابن الأستاذ أبي عمرو الفراتي الخراساني ولي رئاسة نيسابور مدة وورد إلى بغداد فأكرم في دار الخلافة إكراماً لم تجز به العادة لمثله . توفي سنة ست وأربعين وأربع مائة .(الوافي بالوفيات ١- ٩٩٩ . لـ / صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي . بيروت – الثانية –١٤١١هـ – ١٩٩١م).

٤- هو : محمد بن هبة الله بن محمد بن الحسين ، الإمام الكبير ، أبو سهل : وَلَدُ جمال الإسلام أبي محمد بن القاضي أبي عمر البسطامي ، ثم النيسابوري ، وهو الذي يقال له أبو سهل بن الموفق ، والموفق لقب والده جمال الإسلام . ولد سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة . توفى أبوه سنة أربعين ، فاحتف به الأصحاب ، وراعوا فيه حق والده ، وقدموه للرياسة ..(طبقات الشافعية ٢ – ٤٧٦).

أمّا إمام الحرمين فقد هرب من البلاد ، واتجه إلى الحجاز ، وهناك جاور ، وأمّا أبو سهل فقد كان لحسن الحظ غائباً في بعض النواحي .

وبقي القشيري والرئيس الفراتي سجينين إلى أنْ قامت جماعات كبيرة من الناس لإنقاذهما ..

وأمام هذا الاضطهاد ترك القشيري وطنه وبيته وأهله وعشيرته ، ومضى يضرب في الأرض الواسعة عشر سنوات كاملة ، كان خلالها موضع التكريم والتبجيل .

وبمجيء السلطان – ألب أرسلان [١]– خلفاً لعمه طغرل – استقبل العالم الإسلامي كله والأشاعرة والقشيري بوجه خاص بوجه أخص عهداً زاهراً آمناً ، وعاد القشيري إلى مدينته الحبيبة نيسابور حيث قضى بها بقية عمره ، كان فيها مرفهاً محترماً ، ومطاعاً معظماً وأكثر صفوه في آخر أيامه .. وازداد من يقرأ عليه كتبه وتصانيفه والأحاديث المسموعة له " [٢].

وفي ترجمته يقول الإمام ابن السبكي في الطبقات :" الإمام مطلقاً وصاحب الرسالة التي سارت مغرباً ومشرقاً ، والبسالة التي أصبح بها نجم سعادته مشرقاً ، والأصالة التي تجاوز بها فوق الفرقد ورقي . أحد أئمة المسلمين علماً وعملاً ، وأركان الملة فعلاً ومقولاً .

١- هو : أبو شجاع محمد بن جغرى بك ، بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق ، الملقب عضد الدولة ألب أرسلان ، ملك بعد عمه طغرلبك سبع سنين وستة أشهر وأياماً ، وكان عادلاً يسير في الناس سيرة حسنة ، كثير الصدقات . توفي سنة خمس وستين وأربعمائة وعمره إحدى وأربعون سنة . (البداية والنهاية م ٦ – ج ١١ – ص ١١٥ لـ/ الإمام / ابن كثير . ط / دار الحديث – الخامسة – ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م).

٢- سير أعلام النبلاء ١٨ – ١٤٣ .

إمام الأئمة ، ومجلي ظلمات الضلال المدلهمة ، أحد من يقتدى به في السنة ، ويتوضح بكلامه طرق النار وطرق الجنة ، شيخ المشايخ وأستاذ الجماعة ، ومقدم الطائفة ، والجامع بين أشتات العلوم ... ، إلى أنْ يقول : " وكان فقيهاً بارعاً أصولياً ، محققاً ، متكلماً ، سنياً محدثاً ، حافظاً ، مفسراً ، متفنناً ، نحْوياً ، لغوياً ، أديباً ، كاتباً شاعراً ، مليح الخط جداً ، شجاعاً بطلاً ، له في الفروسية واستعمال السلاح الآثار الجميلة أجمع أهل عصره على أنه سيد زمانه ، وقدوة وقته ، وبركة المسلمين في ذلك العصر "هـ [1].

وقد ترك القشيري تراثاً علمياً بلغ نحو خمسة وعشرين كتاباً ، منها على سبيل المثال : التفسير الكبير أو التيسير في التفسير ، وانتهى منه قبل عام ٤١٠ هـ ، وهذا التفسير يعد – كما يقول ابن السبكي – : من أجود التفاسير وأوضحها .

وله كتاب : لطائف الإشارات ـ موضوع البحث ـ وقد فرغ منه عام ٤٣٤ ، وكتاب الرسالة المنسوبة إليه وقد فرغ منه عام ٤٣٧ هـ ، وله من الكتب أيضاً :

– التحبير في التذكير .
– آداب الصوفية .
– كتاب الجواهر .
– عيون الأجوبة في فنون الأسئلة .
– كتاب المناجاة .
– كتاب نحو القلوب الكبير .
– وكتاب نحو القلوب الصغير .
– كتاب أحكام السماع .

١- طبقات الشافعية ٣ / ١٥٠ – ١٥١ .

– كتاب نكت أولي النهى . وغيرها .. [1].

وقد يتساءل البعضُ عن الفرق بين التفسير الكبير أو التيسير في التفسير وبين لطائف الإشارات ؟

والإجابة على ذلك تأتِي من خلال التعرف على حياة القشيري ذاته ، فقد ألف (التيسير في التفسير) قبل أن يلتقي بشيخه أبي علي الدقاق ، وهو بهذا لم يكن قد سلك المسلك الصوفي ، ولذلك سار في تفسيره هذا على المنهج التقليدي حيث يعنى أشد العناية باللغة والاشتقاق والنحو وأسباب النزول والأخبار والقصص ..

ولما التقى بشيخه (الدقاق) وصار من أهل المجاهدة والتذوق ألَّف تفسيره اللطائف الذي عني فيه أشد العناية بفقه باطن اللفظ .. [2]

وبذلك يكون الإمام القشيري بتفسيريه هذين قد أرضى أهل السنة كما قرَّت به أعين الصوفية .

وبعد هذه التقدمة للتفسير الصوفي وترجمة الإمام القشيري وحياته ..

نكون قد مهدنا الطريق لدراسة منهج القشيري في تفسيره(لطائف الإشارات).

ولكن ليس قبل أن أذكّر القارئ الكريم بتعريف معنى المنهج من حيث اللغة والاصطلاح .

فأقول وبالله التوفيق :

المنهج لغة : الطريق الواضح قال ابنُ منظور : نهج : طريق ، بيِّن واضح والجمع نهجات ونهج ونهوج ، والمنهاج : الطريق الواضح واستنهج الطريق : صار نهجاً .. ونهجت الطريق : أبنته وأوضحته يقال : اعمل على ما نهجته لك .. [3].

١- طبقات الشافعية ٣ ـ ١٥٥ . ولطائف الإشارات ١- ١٢ للإمام القشيري – ط . الهيئة العامة للكتاب – تحقيق وتعليق : د / إبراهيم بسيوني .
٢- ينظر : لطائف الإشارات ١-٢٦ . تحقيق / إبراهيم بسيوني .
٣- لسان العرب (مادة نهج٦ـ٤٥٥٤). لـ/ ابن منظور– ط–دار صادر–بيروت– الثالثة ١٤١٤هـ القاهرة .

ومن ذلك منهاج الدراسة ومنهجها وإنْ جاء في المعجم الوسيط أنها محدثة (١).

وعلى ذلك التعريف اللغوي للمنهج فإنَّ قولنا : منهج فلان في التفسير يعني الطريقة التي وضعها واتبعها ، أو وضعها غيره واتبعها هو .

هذا من الناحية اللغوية فإذا ما اتجهنا إلى بيان معنى المنهج من ناحية الاصطلاح فإنَّ لنا نظرتين في ذلك :

أولاً :أنْ ننظر إلى المنهج من حيث العموم دون تخصيصه بمادة واحدة والمنهج من هذه الحيثية يعني خطوطاً رئيسية يأخذ بها كلُّ باحث ، ثم يمزج بها بحسب اهتماماته الخاصة ما يراه محققاً لغرض ينشده طالب المعرفة من كتابه إذا عرفه . فمثلاً المنهج العام للتفسير : هو تفسير القرآن بالقرآن ثم بالسنة ..– الخ – فهذه هي الخطوط الرئيسية ثم تبرز في التفسير ظاهرة التوسع في وجوه الإعراب ومعانيها مِمَّن يهتم بذلك ويريد تقديمه لمن يهمه ، أو تبرز الوجهة البيانية أو الاجتماعية أو الفلسفية أو الصوفية وهكذا ...

وإذا أردنا أن نضع تعريفاً اصطلاحياً للمنهج من هذه الحيثية سنجد أنَّ كتب علم المناهج لم تعط تعريفاً لمنهج أو مناهج إلا في إطار ما اعتنوا به وهو إطار العلوم التطبيقية وما إليها كالطبيعة والأحياء والتاريخ..

ومع ذلك نسوق نصَّاً ونستفيد به في هذا المقام فنقول : أصبح تعريف مصطلح المنهج عندهم هو :" الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة " (٢).

١- المعجم الوسيط مادة نهج . مجمع اللغة العربية – مطبعة مصر القاهرة ١٣٠٨هـ / ١٩٦٠م ، والطبعة الثالثة / ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م .

٢- أصول البحث العلمي ومناهجه د/ أحمد بدر ص ٣٣ – الطبعة السابعة سنة ١٩٨٤ الناشر وكالة المطبوعات الكويت – توزيع دار القلم بيروت .

وواضح أنَّ هذا تعريف لمصطلح (المنهج) عموماً ، وفي ضوئه نعرف خصوص منهج التفسير عموماً وهو : تفسير القرآن بالقرآن ثم بالسنة ... الخ .

ثانيا : أن ننظر إلى المنهج على اعتبار أنَّ التفسير خاص بفلان أو بزمن أو نحو ذلك فإنَّ تعريف المنهج اصطلاحاً – أي منهج التفسير على ذلك – هو :" الطريق المؤدي إلى الكشف عن معاني القرآن الكريم وهو مقارنة بعضه ببعض والنظر في السنة وأقوال الصحابة والتابعين واستخدام القواعد الشرعية والعربية الموصلة إلى الكشف المطلوب واستخدام علوم الطبيعة والطب – ونحوها – المؤدية إلى التوسع في فهم القرآن مضافاً إلى ما سبق من فهم وتفسير واستخدام الفكر المستقيم .

أمَّا عن تعريف منهج فلان في التفسير فنقول مثلاً :" هو الطريق الذي سلكه وأدّى به إلى الكشف عن معاني القرآن الكريم وهو مقارنته بعض القرآن ببعض ونظره في السنة وأقوال الصحابة والتابعين واستخدامه القواعد الشرعية والعربية على الوجه المخصوص الذي يوصله إلى مطلوبه ، واستخدامه علوم الطبيعة والطب – ونحوها فيما يفيد استخدامها فيه متوسعاً في فهم القرآن مضيفاً لذلك إلى ما سبقه من فهمٍ وتفسير ، واستخدامه لفكرة جاءت من فيض الله – تعالى – الذي يؤتي الحكمة من يشاء ولا حدود لبحور حكمته .

وعلى إِثْرِ ذلك نقول : إذا اقتصر فلان في تفسيره على بيان المفردات مثلاً ، قلنا : إنَّ منهجه بيان المفردات في مواضعها من السور – أو مرتبةً ترتيباً أبجدياً – مع الاستشهاد عليها أو عدمه – نقول ما يعبر عن الحالة . وإذا زاد عنصراً فعالاً – أو بطَّالاً – ذكرناه في تعريف منهجه ، ويقاس على ذلك تعريفات المناهج الخاصة في التفسير "(١).

١- ينظر : مناهج المفسرين ص٤٤ – ٤٥ . د/ عبد الغفور محمود مصطفى جعفر . الثانية يوليه ٢٠٠٤ م بدون ذكر المطبعة .

ويتضح من ذلك أنَّ المنهج (أو الطريقة) لا ينبغي اعتباره كهدف في ذاتـه ..، ولكنه مجرد وسيلة لتحقيق الهدف أو الغرض [١].

وعندما نريد تحديد منهج فلان في التفسير فلأجـل معرفـة كيفيـة توصلـه للكشف عن المعنى – بقدر الطاقة –.

ومن خلال هذه التعريفات وهذه النتائج نؤكد على أنَّ التفسير الصـوفي أو الإشاري له منهجٌ خاص في الوصول للكشف عن المعنى يعنى هذا المنهج (أو هـذه الطريقة) في أكثره بباطن اللفظ دون ظاهره.

ومن ثَمَّ فمن خلال دراسة منهج الإمام القشيري في لطائفه سنجد ما يشـفي الغليل من الاستفادة بعلوم أخرى متصلة بعلم التفسير كالبلاغة والعقيدة والفقه ..

وسنلاحظ في نهاية الأمر عدم افتيات الإشارة علـى العبـارة ؛ فهـي ـــ أي الإشارة – في تفسير اللطائف – لا تخرج عن مألوف ما ينسجم مع الأسلوب العربي سواء من حيث اللغة أو النحو أو الاشتقاق أو الفنون الأدبيـة ، ولا تخـرج عـن الدلالات التي توافق أسباب النزول والأخبار الموثوقة وعلوم الحـديث والأصـول والفقه ..

فمنهج القشيري في استخراج الإشارة من العبارة منهج أدبي [٢]، يعتمد علـى تذوق اللفظة ـــ مفردة أو مركبة ـــ تذوقاً ينبني على أصول من اللغة والاشـتقاق

١– ينظر : أصول البحث العلمي ومناهجه ص ٢٥٠ .

٢– المنهج الأدبي : ما يُعنى بالصورة الأدبية للقرآن ، حيـث يترصـد قضاياه الجماليـة في التشخيص والتمثيل ، والإدراك الحسي والتجسيد المتمثل ، والتخلص من وراء ذلك إلى كشف تناسق القرآن وتحقيق توافقه في النظم والتأليف .(المبادئ العامة لتفسير القرآن " دراسة مقارنة " ص ١٢٥ . د / محمد حسين علي الصغير – ط – المؤسسة الجامعية للدراسـات والنشـر والتوزيع – ط أولى ١٤٠٣هـ ـــ ١٩٨٣ م).

والإعراب والبلاغة ، ثم التعبير الذي يفصح به القشيري تعبير أدبيٌّ لـه خصـائص الأسلوب الأدبي والصياغة الفنية .. كما سنراه جلياً في المطالب التاليـة ، والـتي أعتمدُ فيها ـــ بالدرجة الأولى ـــ على النظر فيما قاله الإمام القشـيري في تفسـير آيات مختارة بعينها ، محاولاً من خلالها إظهار ما تضمنه هذا التفسـير مـن علمـي الإشارة والعبارة .

وعلى الله قصد السبيل

المطلب الأول

" علوم القرآن في تفسير اللطائف " :

لا شك أنَّ المفسر لا يمكن أن يبدأ تفسيره فضلاً عن السير فيه إلا بعد إلمامه وإتقانه لعلوم القرآن ، وهي المباحث التي تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله ، وترتيبه ، وجمعه ، وكتابته ، وقراءاته ، وتفسيره ، وإعجازه ، وناسخه ، ومنسوخه ، ودفع الشبه عنه .. ونحو ذلك [١].

ومن خلال النماذج التالية سيرى القارئ الكريم مدى إلمام الإمام القشيري بهذا العلم ومدى استفادته به في استنباط الإشارة القرآنية ، فهو مثلاً عند تفسير البسملة في كتاب الله ـ تعالى ـ نجد الآتي :

أولاً : يبدأ بتفسير البسملة كلمة كلمة ، وأحياناً حرفاً حرفاً .

ثانياً : نجده يفسر كلَّ بسملة من كل سورة على نحو مختلف ومتنوع لا يكاد يتشابه .

ثالثاً : ـ وهو ما يزيدنا إعجاباً بتفسير اللطائف ـ أننا نجد تفسير البسملة يتمشى مع السياق العام للسورة كلها ، فالله والرحمن والرحيم لها دلالات خاصة في سورة القارعة ، ولها دلالات أخرى في سورة النساء ولها دلالات خاصة في الأنفال وهكذا ..

وهاكم النماذج :

يقول في تفسير البسملة من سورة الفاتحة :" الباء في (بسم الله) حرف التضمين ؛ أي بالله ظهرت الحادثات ، وبه وجدت المخلوقات ، فما من حادث مخلوق ، وحاصل منسوق ، من عين وأثر وغبر ، وغيرٍ من حجر ومدر ، ونجم

١- مناهل العرفان في علوم القرآن ١- ٢٨ الشيخ / محمد عبد العظيم الزرقاني . دار الفكر / بيروت ـ ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .

وشجر ، ورسم وطلل ، وحكم وعلل – إلا بالحق وجوده ، والحق مَلِكُه ، ومن الحق بدؤه ، وإلى الحق عوده ، فبه وَجَدَ من وَحَّد ، وبه جحد من ألحد ، وبه عرف من اعترف ، وبه تخلَّف من اقترف .

وقال :(بسم الله) ولم يقل بالله على وجه التبرك بذكر اسمه عند قوم ، وللفَرْق بين هذا وبين القَسَم عند الآخرين ، ولأن الاسم هو المسمى عند العلماء ، ولاستصفاء القلوب من العلائق ولاستخلاص الأسرار عن العوائق عند أهل العرفان، ليكون ورود قوله (الله) على قلبٍ مُنقَّىً وسرٍ مُصَفَّىً . وقوم عند ذكر هذه الآية يتذكرون من الباء برَّه بأوليائه ومن السين سره مع أصفيائه ومن الميم منَّته على أهل ولايته ، فيعلمون أنهم ببره عرفوا سرّه ، وبمنَّته عليهم حفظوا أمره ، وبه ـ سبحانه وتعالى ـ عرفوا قدره . وقوم عند سماع بسم الله تذكروا بالباء براءة الله ـ سبحانه وتعالى ـ من كل سوء ، وبالسين سلامته ـ سبحانه ـ عن كلِّ عيْب ، وبالميم مجده ـ سبحانه ـ بعز وصفه ، وآخرون يذكرون عند الباء بهاءه ، وعند السين سناءه ، وعند الميم ملكه .."هـ[١].

ويقول في تفسير البسملة من سورة البقرة :" الاسم مشتق من السمو والسمة، فسبيل من يذكر هذا الاسم أن يتسم بظاهره بأنواع المجاهدات ، ويسمو بهمته إلى محالِّ المشاهدات . فمن عدِم سمة المعاملات على ظاهره ، وفَقَدَ سموَّ الهمَّة للمواصلات بسرائره لم يجد لطائف الذكر عند قالته ، ولا كرائم القرب في صفاء حالته ... "هـ[٢].

ويقول في تفسير البسملة مثلاً من سورة القارعة :" (بسم الله) كلمة إذا سمعها العاصون نسوا زلتهم في جنب رحمته ، وإذا سمعها العابدون نسوا صولتَهم في جنب إلهيته .

١- لطائف الإشارات ١ – ٤٤ .

٢- المصدر السابق ١ / ٥٢ – ٣٥ .

كلمة من سمعها ما غادرت له شغلاً إلاّ كفَتْه ، ولا أمراً إلاّ أصلحته ، ولا ذنباً إلاّ غفرته ، ولا أرَباً إلاّ قضَتْه "[١].

إلى آخر تلك النماذج ، والتي نستفيد منها الآتي :

أولاً : أنه يعتبر البسملة قرآناً ، وليست كما يقول البعض ، شيئاً يستفتح به للتبرك ، شأن ما نصنع في بداية أقوالنا وأفعالنا[٢].

وقد صرح بذلك عند تفسير سورة براءة حيث قال :" جرَّدَ اللهُ – سبحانه – هذه السورة عن ذكر (بسم الله الرحمن الرحيم) ليُعلم أنه يخصُّ من يشاء بما يشاء ، ويفردُ من يشاء وما يشاء بما شاء ، ليس لصنعه سببٌ ، وليس له في أفعاله غرض ولا أرَبٌ ، واتضح للكافة أن هذه الآية أُثبتت في الكتاب لأنها منزلة ، وبالأمر هنالك محصلة "هـ[٣].

وينقل الإمامُ الزركشي هذا القول عن الإمام القشيري في برهانه فيقول :" قال القشيري : والصحيح أنَّ البسملة لم تكن فيها ، لأنَّ جبريل – عليه السلام – ما نزل بها فيها "هـ[٤].

١- المصدر السابق ٣ – ٧٦٠ .

٢- يقول السيوطي في الإتقان في النوع الخامس والثلاثين (١ – ٢٧٩):".. وليحافظ على قراءة البسملة أول كل سورة غير براءة ، لأنَّ أكثر العلماء على أنها آية "هـ. والخلاف في هذه المسألة يدور على ثلاثة أوجه : (الأول) ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها ، وإنما أنزلت للفصل والتبرك للابتداء بها ، وهو قول مالك .
(الثاني) أنها آية من كل سورة ، وهو قول عبد الله بن المبارك .
(الثالث) قال الشافعي : هي آية في الفاتحة، وتردَّد قوله في سائر السور ، فمرة قال : هي آية من كل سورة ، ومرة قال : ليست بآية إلا في الفاتحة وحدها . ولا خلاف بينهم في أنها آية من القرآن في سورة النمل .(ينظر : الجامع لأحكام القرآن ١ – ٨١ لـ/ الإمام عبد الله بن محمد بن أحمد القرطبي . طبعة خاصة بترخيص من دار الشعب دار الريان للتراث .

٣- لطائف الإشارات ٢ – ٥ .

٤- البرهان في علوم القرآن ١ – ٢٦٣ لـ/ الإمام الزركشي . مكتبة التراث ، بدون تاريخ.

ولا يكتفي الإمامُ القشيري بإشاراته في بيان سرِّ حذف البسملة من سورة براءة بل يتطرق أيضاً إلى ما قيل في سرِّ هذا الحذف مع بيان ضعفه لكن دون ردٍّ له على الإطلاق ، ودون تعصب لما يراه هو .. فيقول – رحمه الله –:" ومن قال : إنَّه لم يذكر التسميةَ في هذه السورة لأنها مفتتحةٌ بالبراءة عن الكفار فهو – وإنْ كان وجهاً في الإشارة – فضعيفٌ ، وفي التحقيق كالبعيد ؛ لأنَّه افتتح سوراً من القرآن بذكر الكفار مثل :(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ[١]) وقوله :(وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ[٢]) وقوله :(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ[٣]) وقوله :(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ[٤]) هذه كلها مفاتيح للسور .. وبسمِ الله الرحمن الرحيم مثبتةٌ في أوائلها – وإن كانت متضمنة ذكر الكفار . على أنه يحتمل أنْ يقال إنها وإن كانت في ذكر الكفار فليس ذكر البراءة فيها صريحاً وإن تضمنته تلويحاً ، وهذه السورة أولها ذكر البراءة منهم قطعاً ، فلم تصدر بذكر الرحمة .."هـ[٥].

هذا أولاً بالنسبة إلى ما يستفاد من النصوص السابق ذكرها أما ما يستفاد ثانياً من ذكر تلك النصوص : أنَّ الإمام القشيري ما دام يعتبر أنَّ البسملة قرآناً ، وما دام يجد لها مقاصد متجددة ، فكأنه – رحمه الله – لا يؤمن بفكرة التكرار في القرآن الكريم ، وفي ذلك يقول – مؤكداً على ذلك –:" فلمَّا أعاد الله – سبحانه وتعالى – هذه الآية – أعني (بسم الله الرحمن الرحيم) في كل سورة ، وثبت أنَّها منها .

١- سورة البينة آية رقم : ١ .

٢- سورة الهمزة آية رقم : ١ .

٣- سورة المسد آية رقم : ١ .

٤- سورة الكافرون آية رقم : ١ .

٥- لطائف الإشارات ٢ – ٥ .

أردنا أن نذكر في كلّ سورة من إشارات هذه الآية كلمات غير مكررة وإشارات غير معادة "هـ[1].

وحق للإمام القشيري أن لا يؤمن بفكرة التكرار في كتاب الله ــ تعالى ــ ..

وهذا لا خلاف فيه عند من لديه أدنى معرفة بكتاب الله ، فكيف بدارسيه ومفسريه ؟ ! .

والتكرار قد يكون بإيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة ، مع كون الغرض المقصود واحد[2] ، وهذا ما يسمى بالمتشابه اللفظي [3] ، ويكثر ذلك في إيراد القصص والأنباء[4].

وقد يكون التكرار باللفظ والمعنى كتكرار قوله ــ تعالى ــ:(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) وفي هذا وذاك يقول الإمام الرازي ــ رحمه الله ــ :" اعلم أنّ عادة الفصحاء جارية بأنّهم يكررون القصة الواحدة في مواضع مختلفة لأغراض مختلفة ، تتجدد في المواضع ، وذلك من الفضائل لا من المعائب . وإنّما يعاب التكرار إذا كان في الموضع الواحد .. وأيضاً : فلأن ظهور الفصاحة وميزتها في القصة الواحدة ، إذا أعيدت يكون أبلغ منها في القصص المتغايرة ، وهذه هي الفائدة فيما تكرر من كتاب الله من قصة موسى وفرعون ، وسائر الأنبياء .

1- المصدر السابق ١ ــ ٤٤ .

2- البرهان في علوم القرآن ١ ــ ١١٢ .

3- وله تعريف آخر ذكره د/ عبد الغني عوض الراجحي حيث قال :" يعرف المتشابه اللفظي اصطلاحاً بأنه :" موضعان أو مواضع سيقت فيها الآيتان أو الآيات لغرض واحد ، ومقصود أصلي واحد ، واختلفت فيها التراكيب والعبارات بتقديم وتأخير ، وذكر وحذف وزيادة ونقص وإبدال كلمة بأخرى ..ونحو ذلك "هـ(متشابه النظم في قصص القرآن الكريم مقارنه وتحليل ص : ٣ . د / عبد الغني عوض الراجحي ، مخطوطة بكلية أصول الدين ــ القاهرة / تحت رقم : ٧٦ .

4- البرهان في علوم القرآن ١ ــ ١١٢ .

وأمّا ما تكرر في سورة الرحمن من قوله (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فليس بتكرار . لأنه ــ سبحانه ــ ذكر نعمة بعد نعمة ، وعقّب كل نعمة بهذا القول ..

فإن قيل : فقد ذكر ــ تعالى ــ في سورة الرحمن ما ليس من النعم وعقبه بهذا القول . لأنه قال (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[1]) .. قلنا : إنّ جهنم والعذاب وإن لم يكونا من آلاء الله ! فإنّ ذكره تعالى لهما ووصفه لهما على طريق الزجر عن المعاصي، والترغيب في الطاعات هو من الآلاء والنعم .. "هـ[2].

وقد أفاض كلّ من الإمام الزركشي في برهانه والإمام السيوطي في إتقانه في بيان الأوجه التي تستفاد من التكرير في كلام يطول ذكره " فلينظر "[3].

وما يهمنا في هذا الشأن هو ما أفاده الإمام القشيري في تلك المسألة من أنّ التكرير في القرآن يفيد في كل مرّة وجهاً جديداً من وجوه الإعجاز البياني .. وذلك كما فهمناه من صنيعه في تفسير البسملة في كل مرة بوجه غير سابقه .

أمّا ما يستفاد ثالثاً من تلك النصوص التي سبق ذكرها من تفسير اللطائف في تفسير البسملة خاصة فهو أنّ الإمام القشيري له اهتمام خاص بعلم المناسبات بين الآيات .. ويذهب كما ذهب جمهور العلماء [4] إلى أنّ كل آية تمثل مع أختها روحاً وجسداً واحداً رغم نزول القرآن على مراحل متعددة وأحداث مختلفة .. فالإمام

1- سورة الرحمن آية رقم : ٤٣ ــ ٤٥ .

2- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ص٢٨٠ ــ ٢٨١ للإمام فخر الدين الرازي ــ ط ــ المكتب الثقافي للنشر والتوزيع بمصر ــ الأولى ١٩٨٩م . بتصرف يسير واختصار .

3- ينظر البرهان ٣ / ٨ ــ ٣٣ القسم الرابع عشر ، والإتقان ٣ / ٢٩٩ ــ ٢٠٦ النوع السادس والخمسون .

4- إنما قلت جمهور العلماء وليس جميعهم لأنه قد عرف عن البعض عدم الاعتداد بعلم المناسبات بين الآيات فضلاً عن السور . وأشهر من قال بذلك (العز بن عبد السلام . في كتابه: الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ص: ٢٢١ ــ ط ــ دار الحديث . والشوكاني في تفسيره " فتح القدير " ١ ــ ٧٢ دار الفكر ــ بيروت).

القشيري في كل مرَّة من تفسير البسملة يستخرج لها معانيَ جديدة تناسب موضوع السورة التي صدرت بها ، وأسوق للقارئ الكريم نموذجاً من تفسير اللطائف ليدلنا على مدى إتقان الإمام القشيري لعلم المناسبات معبراً عنها بطريق الإشارة ولطيف العبارة

يقول — رحمه الله — في تفسير البسملة من سورة الحجر :" سقطت ألفُ الوصل من كتابة " بسم الله " وليس لإسقاطها علة ، وزيد في شكل الباء من " بسم الله " وليس لزيادتها علة ، ليُعْلَم أنَّ الإثبات والإسقاط بلا علة ؛ فلم يقبل من قَبِلَ لاستحقاق علة ، ولا ردَّ مَنْ ردَّ لاستيجاب علة . فإنْ قيل العلةُ في إسقاط الألف من " بسم الله " كثرة الاستعمال في كتابتها أُشكل بأنَّ الباء من " بسم الله " زيد في كتابتها وكثرة الاستعمال موجودة . فإنْ قيل العلة في زيادة شكل الباء بركة أفضالها باسم الله أشكل بحذف ألف الوصل لأنَّ الاتصال بها موجود ، فلم يبق إلا أنَّ الإثبات والنفي ليس لهما علة ؛ يرفع من يشاء ويمنع من يشاء "هـ".[1]

ولو تأملنا داخل السورة لتعجبنا من الصلة الوثيقة المحكمة بين هذا الذي فسرت به البسملة وبين كلامٍ في داخل السورة عن رفع الخلق بلا علة ، وخفضهم بلا علة ، وذلك كما ورد في قصة خلق آدم ، وكيف أنَّ الملائكة " كانوا في حال سترهم لأنَّهم نظروا إلى القوالب مع أنَّ الاعتبار بالمعاني التي يودعها ، فالملائكة استصغروا قدْرَ آدم وحاله وتعجبوا من الأمر لهم بالسجود فكشفَ لهم شظيَّة ممَّا اختصَّه به فسجدوا للأمر .

أمَّا إبليس فلم يفطن للمشيئة الإلهية العليا ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون (بعد ما لاحت لهم المعرفة) وبقي هو على عناده متأبياً أن يسجد لبشر مخلوق من صلصالٍ من حمأٍ مسنون ؛ لأنَّه لا يعرف أنَّ مشيئة الله تجري على غير علة ".[2]

١- لطائف الإشارات ٢ — ٢٦٢ .

٢- ينظر : المصدر السابق ٢ / ٢٦٩ — ٢٧٠ .

وبعد هذه النماذج من تفسير الإمام القشيري للبسملة ، وما يستفاد من ذلك فإنَّ القارئ الكريم لابد أن يتوقع ونحن بصدد الحديث عن علوم القرآن وصلة ذلك بتفسير اللطائف أنْ نسوق إليه موقف القشيري من الحروف المقطعة التي تلي البسملة في عديد من السور نظراً لما دار حول هذه الحروف من جدلٍ كثير ، ونظراً لأنَّها لبعدها عن مألوف الكلام العادي أقرب ما تكون إلى الرموز وبمعنى آخر أقرب ما تكون إلى الإشارات أي أدْخَلَ في عمل القشيري في (لطائف الإشارات) وربما كان أفضل ما نورده هنا قول القشيري في (الم) التي افتتحت بها سورة البقرة لأنَّها كانت أول حروف مقطعة يقابلها أثناء عمله . يقول — رحمه الله —:" هذه الحروف المقطعة في أوائل السورة من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله — عند قوم ، ويقولون لكل كتاب سر ، وسر الله في القرآن هذه الحروف المقطعة . وعند قوم إنَّها مفاتح أسمائه ، فالألف من اسم (الله) ، واللام يدل على اسمه (اللطيف) ، والميم يدل على اسمه (المجيد) و (الملك) .

وقيل أقسم الله بهذه الحروف لشرفها لأنَّها بسائط أسمائه وخطابه .

وقيل إنَّها أسماء السور .

وقيل الألف تدلُّ على اسم (الله) واللام تدلُّ على اسم (جبريل) والميم تدلُّ على اسم (محمد ‍— ﷺ —. فهذا الكتاب نزل من الله على لسان جبريل إلى محمد — ﷺ —"هـ".[1]

فها هو الإمام القشيري يذكر ما قاله العلماء في الحروف المقطعة فهي إمَّا من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله .[2]

١- المصدر السابق ١ — ٥٣ .

٢- قال القرطبي في تفسيره :" قال عامر الشعبي وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين هي — أي الحروف المقطعة هي سرّ الله في القرآن ولله في كل كتاب سر فهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه ولا يجوز أن نتكلم فيها ولكن نؤمن بها ونقرأ كما جاءت وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق وعن على بن أبي طالب — رضي الله عنهما— وذكر أبو الليث السمرقندي عن عمر ، وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا : الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر .

وإمَّا أنَّ هذه الحروف تقبل الاجتهاد في استخراج معانيها .. فهي إمَّا قَسَمٌ أقسم الله به ، وإمَّا أسماء للسور الواردة فيها [١] أو هي رموز للأسماء أو الصفات أو لقضايا وصفية لله تعالى [٢] .

هذا ما قاله العلماء في تلك الحروف لكنَّ الإمام القشيري لا يذهب مع أيٍّ من هذين الرأيين ولكنه يستشعر لهذه الحروف مَعَانِيَ تؤخذُ من مجرد رسمها وهيئاهًا، ولننظر إليه وهو يفيض بإشاراته في تلك الحروف فيقول :" والألِف من بين سائر الحروف انفردت عن أشكالها بأنها لا تتصل بحرف في الخط وسائر الحروف يتصل بها إلا حروف يسيرة ، فينتبه العبد عند تأمل هذه الصفة إلى احتياج الخلق بجملتهم إليه، واستغنائه عن الجميع .

وقال أبو حاتم : لم نجد الحروف المقطعة في القرآن إلا في أوائل السور ولا ندرى ما أراد الله - ﷻ - بها "هـ(الجامع لأحكام القرآن١ – ١٣٣).
ومن المتأخرين الإمام الشوكاني وقد انتصر لهذا القول أشد الانتصار ومما قاله في ذلك :" .. والذي أراه لنفسي ولكل من أحب السلامة واقتدى بسلف الأمة أن لا يتكلم بشيء من ذلك ، مع الاعتراف بأن في إنزالها حكمة لله – ﷻ – لا تبلغها عقولنا ولا تهتدي إليها أفهامنا ، وإذا انتهيت إلي السلامة في مداك فلا تجاوزه "هـ(فتح القدير ١ – ٣٢).

١– انتصر البعض للقول بأن الحروف المقطعة إنما هي أسماء للسور الواردة فيها قال الإمام الزمخشري – رحمه الله – :" وعليه إطباق الأكثر ويعتضد لهذا بما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقرأ في الصبح يوم الجمعة " الم : السجدة وهل أتى على الإنسان "هـ.(الكشاف ١– ٨٣ ط – دار الفكر) والحديث أخرجه البخاري في الصلاة باب ما يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة رقم ٨٩١ . وأخرجه مسلم في كتاب الصلاة باب ما يقرأ في يوم الجمعة رقم ٢٠٠١].
لكن يضعف هذا القول اشتهار تلك السور بأسماء أخرى غير هذه الحروف كسورة البقرة ، وسورة آل عمران وسورة الأعراف ، وسورة مريم ، وما إليها فلو كانت أسماء للسور – كما يقولون – لتواترت على ألسنة أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ وعلى ألسنة المؤمنين جيلاً بعد جيل .(ينظر : تفسير القرآن الكريم للإمام محمود شلتوت – رحمه الله – ص٥٣ ط – دار الشروق الحادية عشرة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م).

٢- وهو قول – كما يقول الإمام محمود شلتوت - :" لا يكاد قلب يطمئن إليه ، إذ لا مستند له يعتمد عليه ، ولا قانون يرجع إليه ، فلكل ناظر أنْ يختار ما يخطر على باله من أسماء أو صفات أو قضايا .. ويجعل الحروف رمزاً "هـ(تفسير القرآن الكريم ص٥٣).

ويقال يتذكر العبد المخلص مِنْ حالة الألف تَقَدُّسَ الحق ـــ سبحانه وتعالى ـــ عن التخصص بالمكان ؛ فإنَّ سائر الحروف لها محل من الحَلْقْ أو الشفة أو اللسان إلى غيره من المدارج غير الألف فإنَّها هويته ، لا تضاف إلى محل .

ويقال الإشارة منها إلى انفراد العبد لله ـــ سبحانه وتعالى ـــ فيكون كالألف لا يتصل بحرف ، ولا يزول عن حالة الاستقامة والانتصاب بين يديه .

ويقال يطالب العبد في سره عند مخاطبته بالألف بانفراد القلب إلى الله ـــ تعالى ـــ وعند مخاطبته باللام بلين جانبه في (مراعاة) حقه ، وعند سماع الميم بموافقة أمره فيما يكلفه .

ويقال اختص كل حرف بصيغة مخصوصة وانفردت الألف باستواء القامة ، والتميز عن الاتصال بشيء من أضرابها من الحروف ، فجعل لها صدر الكتاب إشارة إلى أن من تجرَّد عن الاتصال بالأمثال والأشغال حَظِي بالرتبة العليا ، وفاز بالدرجة القصوى ، وصلح للتخاطب بالحروف المنفردة التي هي غير مركبة ، على سنة الأحباب في ستر الحال ،وإخفاء الأمر على الأجنبي من القصة – قال شاعرهم:

قلت لها قفي قالت قاف ... لا تحسبي أنَّا نسينا الإيجاف [١]

لم يقل وقفت ستراً على الرقيب ولم يقل لا أقف مراعاة لقلب الحبيب بل :" قالت قاف ".

ويقال تكثر العبارات للعموم والرموز والإشارات للخصوص ، أَسْمَعَ موسى كلامَه في ألف موطن ، وقال لنبيِّنا محمد – ﷺ – : ألِفْ ... وقال ـــ عليه السلام ـــ :"

١- هو أول رجز للوليد بن عقبة بن أبي معيط . وقوله : قلت لها قفي فقالت قاف . يريد قد وقفت ، فاكتفت بالقاف . والإيجاف : من وجف الفرس والبعير وجيفا، إذا عدا ، وأوجفته، إذا أعديته، وهو العنف في السير . (ينظر : شرح شافية ابن الحاجب ٤ ـــ ٢٧١ ، للاستراباذي (رضي الدين محمد بن الحسن ، ت ٦٨٦ هـ) ط – دار الكتب العلمية – بيروت .

أوتيتُ جوامعَ الكلِم فاختُصِرَ لي الكلامُ اختصاراً [1]" وقال بعضهم : قال لي مولاي: ما هـذا الدنَف [2] ؟ قلت : هواني ؟ قال : لام ألف "هـ" [3] .

هذا ما قاله الإمام القشيري في هذه الحروف فهو يعتبرها برسومها وهيئاتها إشارات ورموز لما ينبغي أن يكون عليه حال العبد تجاه ربه ، وهـذا القول مع التدقيق الشديد لا ينبغي أن يعارض فيه أصحاب القولين السابقين .

لكننا لا نُخفي سرّاً أنّ الإمام القشيري قد بالغ فيما تدلُّ عليه تلك الحروف برسومها وهيئاتها من إشارات .. وذلك في آخر ما قاله فيها :" أسمع موسى كلامه في ألف موطن ، وقال لنبينا ـــ ﷺ ـــ أَلِفْ ".

فهذا الكلام فيه غموض .. لا يتبين للقارئ حقيقته أو ما فيه من مناسبة ..

فالألف موطن التي كلم الله فيها موسى ـــ عليه السلام ـــ تحتاج إلى دليل وإذا لم نجد هذا الدليل فقدنا الرابط بين الألف ـــ بسكون اللام ـــ كرقم عددي ، وبين الألف ـــ بكسر اللام ـــ كحرف أبجدي

ومن الأبحاث المهمة في علوم القرآن والتي لا بدَّ للمفسر من الإحاطة بها والاستفادة منها في تفسيره معرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول .

١- حديث :" أوتيتُ جوامعَ الكلِم فاختُصِرَ لي الكلامُ اختصاراً " بهذا اللفظ ، قال فيه الإمام الهيثمي : رواه أبو يعلى وفيه عبد الرحمن بن إسحاق ضعفه أحمد وجماعة .(مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١ ـــ ٢١١).

٢- الدَّنَفُ : المَرَضُ اللازِمُ المُخامِرُ وقيل هو المرض ما كان ورجل دَنَفٌ ودَنِفٌ ومُدْنِفٌ ومُدْنَفٌ براه المرضُ حتى أشفى على الموت ..(لسان العرب ٩ ـــ ١٠٧).

٣- لطائف الإشارات ١ / ٥٣ - ٥٤ .

وفي الأول منهما – أعني الناسخ والمنسوخ – نرى الإمام القشيري يـذهب كما ذهب العلماء إلى جواز النسخ عقلاً ووقوعه سمعاً [1] ؛ ويظهر ذلك من خلال تعريفه للنسخ ، ومن خلال النماذج التفسيرية التي تدلُّ على ذلك .

وهذا وذاك يعبِّر عنه الإمام القشيري بلطيف العبارة التي تجري تحت بساط الإشارة وما ينبغي أن يكون عليه حال المريد ، يقول في تفسير قوله ـــ تعالى ـــ :(مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [2])."والنسخ الإزالة [3] أي ما ينقلك من حال إلى ما هي فوقها وأعلى

١- إنَّما قلتُ العلماء ولم أقل جمهور العلماء لأنَّه لا عبرة بمن أنكر النسخ سواء أكان من غير المسلمين كفرق اليهود من الشمعونية والعنانية والعيسوية وكذلك النصارى أم كان من المسلمين كما يُروى عن أبي مسلم الأصفهاني فإنَّه قال : إنَّه جائز غير واقع !!.(ينظر: إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، لـ/ محمد بن علي بن محمد الشوكاني – ط - دار الفكر / بيروت ١٤١٢هـ ـــ ١٩٩٢م).

٢- سورة البقرة آية رقم : ١٠٦).

٣- النسخ من حيث اللغة له عدة معان تدور بين :

النقل : يقولون نسخ زيدٌ الكتاب إذا نقله عن معارضة .(عارضت الشيء بالشيء : قابلته به)

الإبطال : يقولون : نسخت الريحُ آثار القوم إذا أبطلتها وعفت عليها .

الإزالة : يقولون : نسخ الشيبُ الشباب إذا أزاله وحل محله .

وهو في لسان الشرع :(رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر).(ينظر : المصباح المنير (٢ ـ ٤٠٤ المكتبة العلمية بيروت) و كتاب العين (مادة نسخ) للخليل بن أحمد الفراهيدي . ط / دائرة الشئون الثقافية والنشر – الجمهورية العراقية – ١٩٤٨م منشورات وزارة الثقافة والإسلام . ولسان العرب (باب الخاء فصل النون) ٣ ـــ ٦١ . وأساس البلاغة (مادة نسخ)١ـ ٤٧١ لـ/الـزمخشري جار الله – ط – الهيئة العامة للكتاب – الثالثة ١٩٨٥م، - ط – بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م . ومقاييس اللغة ٥ ـــ ٣٤٠ لـــ / أبي الحسين =

منها"هـ(١).

ويقول في تفسير قوله ــ تعالى ــ:(وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)(٢).

": بيّن أن الحكم في تقرير أمر القبلة إلى وقت التحويل ، وتحويلها من وقت التبديل كان اختباراً لهم من الحق لتمييز الصادق من المارق .."هـ(٣).

وفي تفسير قوله تعالى:(وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)(٤).

أحمد فارس بن زكريا – ط – دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي – القاهرة – الأولى ١٣٦٨هـ . والتعريفات ١ ــ ٣٠٩ لـ/ علي بن محمد ابن علي الجرجاني . ط / دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ. تحقيق : إبراهيم الأبياري فواتح الرحموت ٢ / ٦٢ ــ ٦٣ ، وفواتح الرحموت للعلامة / عبد العلي محمد بن نظام الدين الأنصاري ت ١٢٢٥ هـ ، ومسلم الثبوت للإمام / محب الله بن عبد الشكور ت ١١١٩. ط دار الكتب العلمية / بيروت – ط / الأولى ١٤٢٣هـ ــ ٢٠٠٢م . ومناهل العرفان في علوم القرآن ٢ – ١٨٦).

١- لطائف الإشارات ١ – ١١١ .

٢- سورة البقرة آية رقم : ١٤٣ .

٣- لطائف الإشارات ١ – ١٣٣ .

٤- سورة البقرة آية رقم : ٢٣٤ .

": كانت عدة الوفاة في ابتداء الإسلام سَنَةً مستديمة كقول العرب وفعلهم ذلك(١) حيث يقول قائلهم :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكم *** ومن لبَّاك حولاً كاملاً فقد اعتذر(٢)

ثم نسخ ذلك إلى أربعة أشهر وعشرة أيام إذ لا بُدَّ من انتهاء مدة الحداد "هـ(٣).

ومن النماذج في ذلك أيضاً ما قاله في تفسير قوله ــ تعالى ــ:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ

١- يشير الإمام القشيري إلى أنَّ الإسلام أقرَّ أهل الجاهلية في فعلهم ذلك ، ومن ثمَّ فورود الناسخ (الحكم الشرعي) بعد ذلك إنما هو على المنسوخ (وهو أيضاً حكم شرعي لإقرار الشارع له) ذلك أنَّ النسخ لا يكون إلا بتشريع ووحي إلى النبيِّ ــ ﷺ ــ أما إزالة أو إبطال أو رفع ما كان عليه أهل الجاهلية فلا يدخل في مصطلح النسخ الشرعي كما سبق بيانه في الصفحة السابقة .

٢- هو قول لبيد يخاطب ابنتيه . وصوابه : إلى الحول ثم اسم السلام عليكما .. وقوله هذا : يضرب مثلاً في الميت يبكى عليه ، والغائب يحترم له سنة واحدة .(ينظر : الخصائص ٣ ــ ٢٩ لـ/ ابن جني . ط / عالم الكتب . وفصل المقال في شرح كتاب الأمثال ١ــ ٣٢٦ – لـ/ أبي عبيد البكري .ط / مؤسسة الرسالة – بيروت ــ الطبعة الثالثة ، ١٩٨٣ م . وثمار القلوب في المضاف والمنسوب لـ/ الثعالبي . ط / دار المعارف – القاهرة ــ الطبعة الأولى ، ١٩٦٥م).

٣- لطائف الإشارات ١ – ١٨٨ .

أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ [1].

": حكم هذه الآية كان ثابتاً في الشرع ونُسخ ، وفي بيان التفسير تفصيله .

والنسخ هو الإزالة ، وذلك جائزٌ في العبادات .

ومعنى النسخ يوجد في سلوك المريدين ؛ فهم في الابتداء فَرْضُهم القيام بالظواهر من حيث المجاهدات ، فإذا لاح لهم من أحوال القلوب شيء آلت أحوالهم إلى مراعاة القلوب فتسقط عنهم أوراد الظاهر ، فهو كالنسخ من حيث الصورة .

قال تعالى : { مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا } . واتصافهم بمراعاة القلوب أتم بتأديبهم بأحكام المعاملات "هـ[2] .

ويحسب للإمام القشيري – كما يدلُ أيضاً على تحقيقه لما يقول – عدم تسرعه في القول بنسخ آيات ليست من النسخ في شيء ، وذلك كالآيات الآمرة بالصبر على أذى المشركين وإمهالهم ، فإنَّ بعض العلماء ذكروا أنَّ أمثال هذه الآيات نسخت بآية السيف !...

يقول الإمام الزركشي – رحمه الله –:" ما أُمِرَ به لسبب ثم يزول السبب كالأمر حين الضعف والقلة بالصبر وبالمغفرة للذين يرجون لقاء الله ونحوه من عدم إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ونحوها ثم نسخه إيجاب ذلك . ليس بنسخ في الحقيقة ؛ وإنَّما هو نَسْء كما قال – تعالى –:(أو نَنسأها [3]

١- سورة المائدة آية رقم : ١٠٦ – ١٠٨

٢- لطائف الإشارات ١ – ٤٥٣ .

٣- قرأ أبو عمرو ، وابن كثير بفتح النون الأولى وفتح السين والهمزة جعلاه من التأخير على معنى أو نؤخر نسخ لفظها نأت بخير منها فهو من : نسأ الله في أجلك " أي أخَّرَ فيه . وقرأ الباقون : (أو نُنسها) بضم النون معناه " ننسك نحن يا محمد ". (كتاب الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ١ – ١٠٦ لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي – ط / بيروت . وحجة القراءات ص ١٠٩ – ١١٠ لـ/ عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة " أبي زرعة " ط – مؤسسة الرسالة – بيروت / الثانية ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢م) .

فالمُنسأ هو الأمر بالقتال ، إلى أنْ يقوى المسلمون ، وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى .

وبهذا التحقيق تبيَّن ضعفُ ما لهج به كثير من المفسرين في الآيات الآمرة بالتخفيف أنَّها منسوخة بآية السيف وليست كذلك بل هي من المنسأ ، بمعنى أنَّ كلَّ أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعلَّة توجب ذلك الحكم ، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر ، وليس بنسخ إنَّما النسخ الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبدا "هـ[1] .

ويقول الإمام السيوطي – بعد نقله لكلام الإمام الزركشي –:" وقد ذكر جماعةٌ أنَّ ما ورد في الخطاب المشعرِ بالتوقيت والغاية مثل قوله – تعالى –: (فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ [2]) فحكمٌ غير منسوخ لأنَّه مؤجل بأجل، والمؤجل بأجل لا نسخ فيه "هـ[3] .

ولننظر إلى بعض ما قاله الإمام القشيري في تفسير تلك الآيات ، فمن ذلك قوله في تفسير قوله – تعالى –:(وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾) [4] :" أي كِلْهُم وما اختاروا فإنَّا أعتدنا لهم (من خفي المكر ما إذا أحللناه بهم كسرنا عليهم) خُمار الوهم والغِلظة "هـ[5] .

١- البرهان في علوم القرآن ٢ – ٤٢ .

٢- سورة البقرة آية رقم : ١٠٩ .

٣- الإتقان في علوم القرآن ٣ – ٦١ .

٤- سورة الأنعام آية رقم : ٧٠ .

٥- لطائف الإشارات ١ – ٤٨٢ .

وبنفس تلك العبارة قال ابن كمال باشا [1] في تفسير تلك الآية وزاد :" فلا ضرورة في جعله منسوخاً بآية السيف بحمله على الأمر بالكف وترك التعرض لهم "هـ [2].

ويقول القشيري في تفسير قوله ــ تعالى ــ :(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ [3]) :" أي أمهلهم ، وقل لكم مني سلامٌ .. ولكن سوف تعلمون عقوبة ما تستوجبون "هـ [4].

وفي تفسير قوله ــ تعالى ــ :(فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا [5]) يقول ــ رحمه الله ــ :" أي : أنظرهم ، وأمهلهم قليلاً وأرودهم رويداً "هـ [6].

وفي تفسير قوله ــ تعالى ــ :(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ [7])يقول ــ رحمه الله ــ : " لست عليهم بمسلط ، فذكر ــ يا محمد ــ بما أمرناك به ، فبذلك أمرناك "هـ [8]... الخ

١- هو : أحمد بن سليمان بن كمال باشا، شمس الدين(٠٠٠ ــ ٩٤٠ هـ = ٠٠٠ ــ ١٥٣٤ م): قاض من العلماء بالحديث ورجاله . تركي الأصل ، مستعرب .قال التاجي : قلما يوجد فن من الفنون وليس لابن كمال باشا مصنف فيه . تعلم في أدرنه ، وولي قضاءها ثم الإفتاء بالآستانة إلى أن مات .(الأعلام١ــ ١٣٣).

٢- تفسير ابن كمال باشا (سورة الأنعام) ص ٢٣٨ . تحقيق ودراسة وتعليق د / عبد الوهاب عبد العاطي عبد الله . ط / دار الطباعة المحمدية . ط / الأولى ١٩٩١م).

٣- سورة الزخرف آية رقم : ٨٩ .

٤- لطائف الإشارات ٣ ــ ٣٧٨ .

٥- سورة الطارق آية رقم : ١٧ .

٦- لطائف الإشارات ٣ ــ ٧١٦ .

٧- سورة الغاشية آية رقم : ٢١ .

٨- لطائف الإشارات ٣ ــ ٧٢٣ .

أمّا عن أسباب النزول في هذا التفسير . ومنهج الإمام القشيري في ذلك :

فإنّ الإمام القشيري له منهج خاص في تلك المسألة فهو لا يكاد يذكر لنا أسباب نزول الآيات التي لها سبب إلا في القليل النادر ، ..

وهاكم النماذج :

يقول في تفسير قوله ــ تعالى ــ :(وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى)[1] [2].

": عبدٌ رفع الله ــ سبحانه ــ قَدَماً فإلى القيامة جعل أثر قَدَمِه قبْلةً لجميع المسلمين إكراماً لا مدى له "هـ [3].

نرى الإمام القشيري في هذا النموذج لا يُعنى إلا بإظهار ما تدلُّ عليه الآية من لطائف وإشارات تعود في مجملها إلى تربية النفس وتهذيبها وإيقافها على مقام التواضع والخضوع لرب العالمين ..

وفي تفسير قوله ــ تعالى ــ :(وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[4].

١- سورة البقرة آية رقم : ١٢٥ .

٢ - أخرج البخاري في صحيحه (كتاب التفسير باب " قوله { واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى } رقم : ٤٤٨٣ بسنده عن أنس قال : قال عمر : وافقت الله في ثلاث ــ أو وافقني ربي في ثلاث ــ قلت يا رسول الله لو اتخذْتَ مقام إبراهيم مصلى . وقلت يا رسول الله ، يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرتَ أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب . قال وبلغني معاتبةُ النبي ــ ﷺ ــ بعض نسائه . فدخلت عليهن قلت : إن انتهيتنَّ أو ليبدلنَّ الله رسوله ــ ﷺ ــ خيراً منكن ، حتى أتيتُ إحدى نسائه قالت : يا عمر ، أما في رسول الله ــ ﷺ ــ ما يعظ نساءه حتى تعظهنَّ أنت ؟ فأنزل الله { عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات } الآية .

٣- لطائف الإشارات ١ ــ ١٢٣ .

٤ - سورة البقرة آية رقم : ١٨٩ .

يقول ــ رحمه الله ــ:" يعني ليس البرّ مراعاة الأمور الظاهرة ، بل البرّ تصفية السرائر وتنقية الضمائر "هـ (١) .

وهذا ما يشير إليه سبب نزول الآية الذي لم يذكره مع فائدته في فهمها (٢) .

ويمضي الإمام القشيري على ذلك في غالب تفسيره حتى في الآيات التي قد يلتبس على البعض فهمها لولا الاستعانة بأسباب النزول في التعرف على معناها ومن ذلك قوله ــ تعالى ــ:(﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾) (٣) .

فقد كان عروة بن الزبير يفهم من الآية أنه ليس على أحد شيء أن لا يطوف بالصفا والمروة حتى بينت له السيدة عائشة – رضي الله عنها – الوجه الصحيح في تفسير هذه الآية عن طريق ذكر سبب نزولها حيث إنّ الأنصار كانوا يتحرجون من الطواف بالصفا والمروة في الجاهلية . فأنزل الله (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللهِ

١– لطائف الإشارات ١ – ١٥٩ .

٢– سبب نزول هذه الآية ما ورد عن البراء ــ رضي الله عنه ــ حيث قال :" كــانوا إذا أحرمــوا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله { وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا }

(صحيح البخاري كتاب التفسير ، باب { وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } رقم : ٤٢٤٢ ، وصحيح مسلم في أوائل كتاب التفسير رقم :٣٠٢٦).

٣– سورة البقرة آية رقم : ١٥٨ .

فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) (١) .

لكن الإمام القشيري لا يكاد يعنيه ذلك بقدر ما يعنيه الطــواف حــول الإشارات واللطائف الروحية التي تستشعر مــن أمــاكن تلك النسك .. فــنراه يقــول فــي تفسير تلك الآية :" تلك المشاهد والرسوم ، وتلك الأطلال والربوع تُعظَّم وتُزار ، وتشدُّ لها الرحال ؛ لأنها أطلال الأحباب ، وهناك تلوح الآثار .. ــ إلى أن يقول :" حظي الصفا والمروة بجوار البيت فَشُرِعَ السعي بينهما كما شُرع للبيت الطواف ، فكما أنّ الطواف ركن في النُسك فالسعي أيضاً ركــن ، والجــارُ يكرَمُ لأجل الجار "هـ (٢) .

ولّما كانت بعض الآيات لا يخفى من أسلوبها سبب نزولهــا ولا يــتم معناهــا كذلك إلا بذكره فإنّ الإمام القشيري يسوق لنا الآية مع بيان هــذا الســبب .. ، يقول في تفسير قوله ــ تعالى ــ:(قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾) (٣).

١– رواه البخاري في التفسير باب " ومناة الثالثة الأخرى " رقم : ٤٨٦١ ومسلم كتاب الحج باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به رقم : ٣٠٢٨). ولفظه : عن عروة بن الزبير قال : قلت لعائشة زوج النبي – ﷺ – : ما أرى على أحدٍ لم يطف بين الصفا والمروة شيئاً ، وما أبالي أن لا أطوف بينهما ، قالت : بئس ما قلت يا ابن أختي ، طاف رسول الله – ﷺ – وطاف المسلمون . فكانت سنّةً . وإنما كان من أهلّ لمناة الطاغية ، التي بالمشلل ، لا يطوفون بين الصفا والمروة . فلما كان الإسلامُ سألنا النبي – ﷺ – عن ذلك ؟ فأنزل اللهُ ــ ﷻ ــ:﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾. ولو كانت كما تقول ، لكانت : فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما .

٢– لطائف الإشارات ١ – ١٤١ .

٣– سورة المجادلة آية رقم : ١ .

": لمَّا صَدَقَت في شكواها إلى الله وأيِسَتْ من استكشاف ضُرِّها من غير الله – أنزل الله في شأنها :(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ). تَضَرَّعَتْ إلى الله ، ورَفَعَتْ قِصَّتَها إلى الله ، ونَشَرت غُصَّتَها بين يدي الله – فَنَظَرَ إليها الله ، وقال :(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ). ويقال : صارت فرجةً ورخصةً للمسلمين إلى القيامة في مسألة الظِّهار ، وليعلم العالِمون أنَّ أحداً لا يخسر عَلَى الله .

وفي الخبر : أنها قالت :" يا رسول الله ، إنَّ أوساً تزوَّجني شابَّةً غنيةً ذات أهلٍ، ومالٍ كثير ، فلما كبرت سنِّي ، وذَهَبَ مالي ، وتَفَرَّق أهلي جعلني عليه كظَهْرِ أُمِّه ، وقد ندِم وندمت ، وإنَّ لي منه صبيةً صغاراً إنْ ضَمَمْتهم إليه ضاعوا ، وإنْ ضممتُهم إليّ جاعوا ".

فقال لها الرسول ــ ﷺ ــ في رواية –:" ما أُمِرْتُ بشيء في شأنك ".

وفي رواية أخرى أنه قال لها :" بنْت عنه "(أي حرمت عليه).

فترددت إلى رسول الله ــ ﷺ ــ في ذلك ، وشكت .. إلى أنْ أنزل الله حُكْم الظِّهار "هــ(1).

1– لطائف الإشارات ٣ / ٥٤٨ – ٥٤٩ . وحديث مظاهرة أوس بن الصامت لزوجته خولة بنت ثعلبة أخرجه أحمد في مسنده ٦ ــ ٤٦ (حديث السيدة عائشة رضي الله عنها) رقم : ٢٤٢٤١ ، والنسائي في سننه كتاب الطَّلاق ، باب الظِّهار رقم : ٣٤٦٠ ، والبيهقــي في سننه كتاب الظهار بــاب سَبَب نُزول آية الظِّهار رقم : ١٥٦٣٦ ، وأبــو داود في ســنن كتاب الطلاق باب في الظهار رقم :٢٢١٤ ، وابن ماجة في سننه كتاب الطلاق باب الظهار رقم : ٢٠٦٣ ، ورواه البخاري في كتاب التوحيد (باب قول الله ــ تعالى ــ { وكـان الله سميعا بصيرا }) تعليقاً فقال : وقال الأعمش عن تميم عن عروة عن عائشة قالـت الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات فأنزل الله ــ تعالى ــ على النبي – ﷺ – { قد سمع الله قول الـتي تجادلك في زوجها }).

وقال في تفسير قوله ــ تعالى ــ:(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (1)):" كان ذلك حين تأخر جبريل – عليه السلام – عنه أياماً فقال أهل مكة : إنَّ محمداً قد قلاه ربــه ، ثم أنزل الله هذه السورة "هــ(2).

ولا يخفى أنَّ أبحاث علوم القرآن كثيرة ومتنوعة لا يتسع المقامُ إلا لهذا القليل الذي ذكرته .. وقد تبيَّن من خلاله كيف أنَّ الإمام القشيري لا ينطلق إلى استنباط تلك الإشارات واللطائف إلا بعد تحصيله للقواعد والأصول التي تمكنه من ذلــك ، واستكمالاً لإظهار تلك القواعد نواصل الحديث عن منهج الإمــام القشــيري في تفسيره من خلال الحديث عن بعض المسائل الفقهية في هذا التفسير .

1– سورة الضحى آية رقم : ٣ .

2– لطائف الإشارات ٣– ٧٤٠. والحديث رواه البخاري كتاب التفسير باب: ما ودعـك ربك وما قلى رقم : ٤٩٥٠ ، ورواه مسلم – كتاب المغازي ، باب : ما لقي النبي–ﷺ– من أذى المشركين والمنافقين رقـم:٤٥٧٦). ولفظه :".. اشتكى رسول الله – ﷺ – فلم يقـم ليلتين أو ثلاثا ، فجاءت امرأة فقالت : يا محمد أني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثا ، فأنــزل الله ــ ﷻ ــ:﴿ وَالضُّحَى ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۞ مَـا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾. وفي رواية أخرى لمسلم :" أبطأ جبريلُ على رسول الله – ﷺ – فقال المشركون : قد ودِّع محمدٌ . فأنزل الله ــ ﷻ ــ﴿ وَالضُّحَى ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا سَـجَى ۞ مَـا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾. (صحيح مسلم كتاب المغازي – باب ما لقي النبي – ﷺ – من أذى المشركين والمنافقين رقم : ٤٥٧٥).

المطلب الثاني :

الفقه في تفسير اللطائف :

لا يمكن لأحدٍ أنْ يقدمَ على تفسير الكتاب العزيز تفسيراً يعتدُّ به دون أن تكون لديه ملكة فقهية تمكنه من فهم كلام الله ــ تعالى ــ على سبيل العموم ثم تلك الآيات التي تتناول أحكاماً شرعية تتصل بأعمال المكلفين على سبيل الخصوص.

وإذا كنا بصدد الحديث عن منهج الإمام القشيري في تفسيره من هذه الحيثية فإني ألفت نظر القارئ الكريم إلى أنّه لا ينبغي أن ينتظر من الإمام القشيري إسهاباً في ذكر تلك المسائل الفقهية وما يتصل بها من تفصيلات واستدلالات لأنَّ هذا الكتاب في أصله لم يؤلف لذلك وإنما قصد به القشيري استمداد ما هو نافع للصوفية من حيث تدعيم رأي من آرائهم أو عمل من أعمالهم ..

لكننا مع ذلك سنرى من خلال النماذج التالية تميز الإمام القشيري بتلك الملكة الفقهية بعمومها وخصوصها والاستفادة بذلك في استنباط اللطائف والإشارات ..

يقول ــ رحمه الله ــ في تفسير قوله ــ تعالى ــ:(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴿١﴾)[1]

": الطلاق وإنْ كان فراقاً فلم يجعله الحق محظوراً .. وإنْ كان من وجه مكروهاً .

١- سورة الطلاق آية رقم : ١ .

والطلاق وقتية [1]: سُنِّية وبدْعية ، ومباحة ، لا سنية ولا بدعية ؛ فالسنية : أنْ تطلّقَ في طُهْرٍ لم تُباشر فيه طلقةً واحدة ، والبدعية : في حال الحيض وطُهْرٍ جُومعت فيه ، والمباحة : في طهر بعد حيض ثم يطلقها من قبل أن يجامعها - والطلاق أكثر من واحدة .

والعِدَّة – وإن كانت في الشريعة لتحصين ماء الزوج محاماةً على الأنساب لئلا يدخل على ماء الزوج ماءٌ آخر– فالغالبُ والأقوى في معناها أنها للوفاء للصحبة الماضية في وصلة النكاح .

والإشارة في الآيات التالية إلى أنّه بعد أن انتهت الوصلة فلا أقلَّ من الوفاء مدةً لهذه الصغيرة التي لم تحِضْ ، وهذه الآيسة من الحيض ، وتلك التي انقطع حَيْضُهَا ، والحُبلَى حتى تلد ... كل ذلك مراعاةً للحرمة : وعِدَّةُ الوفاة تشهد على هذه الجملة في كونها أطول ؛ لأنَّ حُرْمَةَ الميت أعظم وكذلك الإمداد في أيام العِدَّة ... المعنى فيه ما ذكرنا من مراعاة الوفاء والحرمة "هـ[2].

فها هو الإمام القشيري لا يكاد يخرج في تفسير هذه الآية عن ظاهرها ولا عمَّا قاله المفسرون فيها .. وهو بهذا الصنيع يؤكد لنا أنَّ لعلم الإشارة حدوداً

١- أي وجوه مرتبطة بأوقات خاصة .. رُوي عن ابن عباس ــ ﷺ ــ قال : " الطَّلَاقُ عَلَى أَرْبَعَةِ وُجُوهٍ : وَجْهَانِ حَلَالٌ وَوَجْهَانِ حَرَامٌ فَأَمَّا الْحَلَالُ فَأَنْ يُطَلِّقَهَا طَاهِرًا مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ أَوْ يُطَلِّقَهَا حَامِلاً مُسْتَبِينًا حَمْلُهَا وَأَمَّا الْحَرَامُ فَأَنْ يُطَلِّقَهَا حَائِضًا أَوْ يُطَلِّقَهَا حِينَ يُجَامِعُهَا لَا يَدْرِى اشْتَمَلَ الرَّحِمُ عَلَى وَلَدٍ أَمْ لَا .(أخرجه الدار قطني كتاب الطلاق والخلع والإيلاء وغيره رقم ١٦ الباب الثالث منه) والبيهقي في سننه كتاب الخلع والطلاق ، باب ما جاء في كراهية الطّلاق رقم : ١٥٣١٤ ، وعبد الرزاق في مصنفه كتاب الطلاق ، باب وجه الطلاق وهو طلاق العدة والسنة رقم : ١٠٩٣٠).

٢- لطائف الإشارات ٣ / ٥٩٨ - ٥٩٩ .

وضوابطاً .. لا ينبغي أن تهيم هنا وهناك ، ولا أن تنطلق دون قيود .. ولا ينبغي أن تحجب بأيِّ حال من الأحوال ظاهر اللفظ ..

ومن النماذج أيضاً ما قاله في تفسير قوله — تعالى —: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾) [1]

: " الصوم على ضربين : صوم ظاهر وهو الإمساك عن المفطرات مصحوباً بالنية ، وصوم باطن وهو صَوْنُ القلب عن الآفات ، ثم صون الروح عن المساكنات، ثم صون السِّرِّ عن الملاحظات .

ويقال صوم العابدين شرطه – حتى يَكْمُل – صونُ اللسان عن الغيبة ، وصون الطَّرْف عن النظر بالريبة كما في الخبر : " مَنْ صام فَلْيَصُمْ سمعه وبصره ... الخبر [2]، وأمَّا صوم العارفين فهو حفظ السر عن شهود كل غيره .

وإنَّ من أمسك عن المفطرات فنهاية صومه إذا هجم الليل ، ومن أمسك عن الأغيار فنهاية صومه أن يشهد الحق ، قال — ﷺ —: " صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته [3] " الهاء في قوله — عليه السلام — لرؤيته — عائدة عند أهل التحقيق إلى الحق —

١- سورة البقرة آية رقم : ١٨٣ .

٢- هو من كلام جابر بن عبد الله — رضي الله عنه — ولفظه : " إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمأثم ودع أذى الخادم وليكن عليك وقار وسكينة يوم صيامك ولا تجعل يوم فطرك ويوم صيامك سواء . [أخرجه البيهقي في شعب الإيمان(٣ — ٣١٧ ط / دار الكتب العلمية – بيروت — الطبعة الأولى : ١٤١٠هـ —) في فضائل الصوم ، الصائم ينزه صيامه عن اللغط رقم : ٣٦٤٦ . وابن أبي شيبة في مصنفه (كتاب الصيام) ما يؤمر به الصائم من قلة الكلام وتوقي الكذب رقم : ٨٨٨٠ ، وابن المبارك في الزهد ١ — ٤٦١ (دار الكتب العلمية – بيروت) رقم : ١٣٠٨).

٣- أخرجه البخاري في كتاب الصوم باب قول النبي — ﷺ — (إذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا) رقم : ١٨١٠ وأخرجه مسلم في الصيام باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال رقم : ١٠٨١).

سبحانه —، فالعلماءُ يقولون معناه عندهم صوموا إذا رأيتم هلال رمضان وأفطروا لرؤية هلال شوال ، وأمَّا الخواص فصومهم لله لأنَّ شهودهم الله وفطرهم بالله وإقبالهم على الله والغالب عليهم الله ،.. "هـ [1].

هذا تقسيم الإمام القشيري للصوم فهناك صوم ظاهر وهو الذي يقصده الفقهاء ، وهناك صوم باطن وهو الذي يقصده أرباب السلوك ، وهذا أيضاً في الحقيقة يعود إلى الشريعة نفسها من قَبل قوله — ﷺ —: " مَنْ لم يدع قول الزور والعمل فليس لله حاجة في أن يترك طعامه وشرابه " [2] وقوله — ﷺ —: " رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلاَّ الجوع والعطش ... الحديث " [3].

ومن ذلك أيضاً في تفسير قوله — تعالى —: (۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾) [4].

: " الغنيمة ما أخذه المؤمنون من أموال الكفار إذا ظفروا عند المجاهدة والقتال معهم فإذا لم يكن قتال — أو ما في معناه فهو فيء .

والجهاد قسمان : جهاد ظاهر مع الكفار وجهاد الباطن مع النفس والشيطان وهو الجهاد الأكبر كما في الخبر "هـ [5].

١- لطائف الإشارات ١ — ١٥٢ .

٢- أخرجه البخاري في كتاب الصوم ، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم رقم : ١٨٠٤ .

٣- أخرجه ابن ماجة في سننه كتاب الصيام ، باب ما جاء في الغيبة والرفث للصائم رقم : ١٦٩٠ . قال الهيثمي في المجمع (٣ — ٢٦٠): " رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون " رقم الحديث : ٥٢٣٢).

٤- سورة الأنفال آية رقم : ٤١ .

٥- لطائف الإشارات ١ — ٦٢٦ . وحديث رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال : جهاد القلب . قال العجلوني في كشف الخفاء(١ — ٥١١ دار إحياء التراث العربي): " قال الحافظ ابن حجر في تسديد القوس هو مشهور على الألسنة وهو من=

ومن النماذج التي تدل على إظهار مذهبه الشافعي في الفقه ما قاله في تفسير سورة براءة :" .. ويقال إذا كان تجرُّدُ السورة عن هذه الآية " أي البسملة " يشير إلى أنَّها لذكر الفراق فبالحريِّ أن يخشى أنَّ تجرّد الصلاة عنها يمنع عن كمال الوصلة والاستحقاق "هـ (١).

قلت : يدلُّ ظاهر كلام القشيري هنا على مذهبه الشافعي في أنَّ البسملة آية من الفاتحة وإذا كانت آية من الفاتحة لم تجز الصلاة بتركها .. (٢).

=كلام إبراهيم بن عيلة ، انتهى ، وأقول الحديث في الإحياء قال : العراقي رواه بسند ضعيف عن جابر ورواه الخطيب في تاريخه عن جابر بلفظ قدم النبي ـ ﷺ ـ من غزاة فقال عليه ـ الصلاة والسلام ـ : قدمتم خير مقدم وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر قالوا : وما الجهاد الأكبر ؟ قال : مجاهدة العبد هواه ، انتهى ، والمشهور على الألسنة رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر دون باقيه ففيه اقتصار ، انتهى ").

١- لطائف الإشارات ٢ – ٥ .

٢- التسمية في كلِّ ركعة قبل الفاتحة بأن يقول : بسم الله الرحمن الرحيم : سنة عند الحنفيَة قالوا : يسمي الإمام والمنفرد سراً في أوّل كل ركعة سواء كانت الصلاة سرية أو جهرية . أما المأموم فإنه لا يسمي طبعا لأنه لا تجوز له القراءة ما دام مأموما ويأتي بالتسمية بعد دعاء الافتتاح وبعد التعوذ فإذا نسي التعوذ وسمي قبله فإنه يعيده ثانيا ثم يسمي أمَّا إذا نسي التسمية وشرع في قراءة الفاتحة فإنَّه يستمر ولا يعيد التسمية على الصحيح أما التسمية بين الفاتحة والسورة فإن الإتيان بها غير مكروه ولكن الأولى أن لا يسمي سواء كانت الصلاة سرية أو جهرية وليست التسمية من الفاتحة ولا من كل سورة في الأصح وإن كانت من القرآن .
وأمَّا المالكية فقالوا : يكره الإتيان بالتسمية في الصلاة المفروضة سواء كانت سرية أو جهرية إلا إذا نوى المصلي الخروج من الخلاف فيكون الإتيان بها أول الفاتحة سراً مندوباً والجهر بها مكروه في هذه الحالة أما في صلاة النافلة فإنه يجوز للمصلي أنْ يأتي بالتسمية عند قراءة الفاتحة
وأمَّا الشافعية فقالوا : البسملة آية من الفاتحة فالإتيان بها فرض لا سنة فحكمها حكم الفاتحة في الصلاة السرية أو الجهرية فعلى المصلي أن يأتي بالتسمية جهرا في الصلاة الجهرية كما يأتي بالفاتحة جهراً وإن لم يأت بها بطلت صلاته .
وأمَّا الحنابلة فقالوا : التسمية سنة والمصلي يأتي بها في كل ركعة سراً وليست آية من الفاتحة وإذا سمى قبل التعوذ سقط التعوذ فلا يعود إليه وكذلك إذا ترك التسمية وشرع في قراءة الفاتحة فإنها تسقط ولا يعود إليها كما يقول الحنفية .(الفقه على المذاهب الأربعة ١ ـ ٢٢٨ لـ/ عبد الرحمن الجزيري . ط / دار الريان للتراث . بدون تاريخ).

لكن تصدير قوله هذا بقوله :(يقال) مما يخفف الوطأة وينفي عنه مغبة التعصب وممَّا يدلُّ على ذلك أنَّه ذكر في تفسير بعض الآيات القولَ والقولَ الآخر.. ومن ذلك قوله في تفسير قوله ـ تعالى ـ:(إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾) (١).

:" ذكرَ أنَّ العفوَ أتمّ وأحسن ، إمَّا من جهة المرأة في النصف المستحق لها ، أو من قبل الزوج في النصف العائد إليه "هـ (٢).

بالأول قال مالك (والشافعي في القديم) وبالثاني قال أبو حنيفة (والشافعي في الجديد) (٣).

قلت : هذه نماذجُ فقهية وردت في تفسير اللطائف ؛ وهي ـ والحق يقال ـ قليلة يعزُّ الحصول عليها مما يدلُّ على أنَّ الإمام القشيري ـ رحمه الله ـ في تفسيره هذا قد نأى بنفسه عن الخلافات الفقهية ، وما ينتج عنها في غالب الأحوال من الانشغال بظاهر الأفعال والأعمال دون باطنها .. وليس هذا قصد صاحب هذا التفسير الذي وضع على عاتقه مهمة إصلاح هذا الباطن بقدر المستطاع ..

ونواصل الحديث عن منهج الإمام القشيري في تفسيره من خلال تناوله لبعض المسائل العقدية .

١- سورة البقرة آية رقم : ٢٣٧ .

٢- لطائف الإشارات ١ – ١٨٦ .

٣- ينظر : روضة الطالبين وعمدة المفتين ٣ ـ ٥٨ لـ الإمام النووي . ط / بيروت سنة ١٣٨٦هـ . والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢ ـ ١٠١٤ ، وأسباب اختلاف الفقهاء ص ٢٧٠ د / سام بن علي الثقفي . ط / دار البيان للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦ م .

المطلب الثالث :

العقيدة في تفسير اللطائف :

من المعلوم لدى دارسي كتاب الله ــ تعالى ــ أنَّ علمَ العقائد – والذي هو علم يتصل بالإلهيات ، والنبوات ، والسمعيات – علمٌ جد خطير ، إذ يجب على المفسر أن يكون على دراية كاملة بما يجب لله ــ تعالى ــ وما يجوز وما يستحيل في حقه ــ تعالى ــ، وما يجب في حق الأنبياء من العصمة والتبليغ إلى غير ذلك من بحوث هذا العلم ..

وإمامُنا القشيري في تفسيره اللطائف لا يغفل هذه المسائل العقدية بل نجده سنياً يدافع عن عقيدته يميل إلى قول الخلف في تأويل آيات الصفات قائلاً بعذاب القبر مثبتاً – مثل غيره من أهل السنة – لرؤية الله ــ تعالى ــ يوم القيامة .

إلى آخر هذه المسائل التي تطلعنا على عقيدة راسخة ، ومنهج متوازن يسير مع مقتضيات العقل وأصول الشريعة .

وفيما يلي بيان ذلك :

يقول ــ رحمه الله ــ في تفسير قوله ــ تعالى ــ(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ)[(١)] .

": الأكوان بقدرته استوت ، لا أنَّ الحقَّ ــ سبحانه ــ بذاته – على مخلوق – استوى ، وأنَّى بذلك ! والأحدية والصمدية حقه ، وما توهموه من جواز التخصيص بمكان فمحال ما توهموه ، إذ المكان به استوى ، لا الحق سبحانه على مكان بذاته استوى "هـ[(٢)] .

ويقول في تفسير قوله ــ تعالى ــ(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)[(٣)] .

١– سورة البقرة آية رقم : ٢٩ .

٢– لطائف الاشارات ١ – ٧٤ .

٣– سورة الفتح آية رقم : ١٠ .

": أي " يد الله " في المِنَّة عليهم بالتوفيق والهداية : " فوق أيديهم " بالوفاء حين بايعوك ، ويقال : قدرة الله وقوته في نصرة دينه ونصرة نبيه ــ ﷺ ــ فوق نصرهم لدين الله ولرسوله "هـ[(١)] .

ويقول في تفسير قوله ــ تعالى ــ:(بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ)[(٢)] .

": أثنى على نفسه فقال :(بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) أي بل قدرته بالغة ومشيئته نافذة ، ونعمته سابغة وإرادته ماضية .

ويقال :" بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ " أي يرفع ويضع ، وينفع ويدفع ، ولا يخلو أحدٌ عن نِعَم النفع وإنْ خلا عن نعم الدفع "هـ[(٣)] .

قلت : في هذه النماذج نرى الإمام القشيري وهو ينحو بالصفات الخبرية[(٤)] . منحى الخلف حيث يؤولها على ما يليق بالله ــ تعالى ــ.

١– لطائف الإشارات ٣ – ٤٢٢ .

٢– سورة المائدة آية رقم : ٦٤ .

٣– لطائف الإشارات ١ – ٤٣٧ .

٤– الصفات الخبرية : وتسمى النقلية ، والسمعية، وهي التي لا تعرف إلا عن طريق النص، فطريق معرفتها النص فقط .

والمعني بها صفات ذات خصيصتين :

أولاهما : أن العقل لا يوجب اتصافه ــ تعالى ــ بشيء منها ، بمعنى أنه لا تتوقف – البتة – عند العقل على ثبوت شيء من تلك الصفات إلهيته ــ سبحانه ــ، فيخرج عن هذه التسمية الصفات الواجبة له عقلاً كالقدرة والإرادة والعلم والحياة .

ثانيهما : أنا لا نعلم من حقائقها اللغوية إلا أبعاضاً أو أعراضاً جسمانية أو وجدانية نفسية محدثة لا يليق قيامها بالرب – جل وعلا – فيخرج عن هذه التسمية ، كذلك ما لا يفهم عنه تلك المظاهر الجسمانية والأعراض النفسية كبعض صفات أفعاله من نحو كونه خالقاً ، رازقاً ، غفاراً مثلاً ، كما يخرج عنها ما نعقل بيسر من حقائقها ما لا يختص بتلك المظاهر والأعراض المحدثة كالسمع والبصر والكلام ... (ينظر : الدخيل في التفسير ص ١٥٦ لـ/الأستاذ الدكتور/ إبراهيم عبد الرحمن خليفة . ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م بدون ذكر المطبعة).

وقد ذكر العلماء أنَّ عقيدةَ السلف في تلك الصفات أسلم [1] إذْ هم بعد صرف هذه الألفاظ عن ظاهرها يفوضون المعنى المراد إلى الله ــ تعالى ــ.

وإنَّما صار من صار منهم إلى التأويل فلضرورة اقتضت ذلك وهي دعاوى المشبهة والمجسمة إزاء هذه النصوص وتشبثهم بما يوهم ظاهرها من التشبيه والتجسيم .

أمَّا أنَّ بعضَ السلف قد أوَّلَ هذه الصفات فهذا ما ذكره الإمام النووي عند شرحه لحديث الترول [2] وفيه يقول :" هذا الحديث من أحاديث الصفات وفيه مذهبان مشهوران للعلماء سبق إيضاحهما في كتاب الإيمان ، ومختصرهما أنَّ :

أحدهما: وهو مذهب جمهور السلف وبعض المتكلمين أنها يؤمن بأنها حق على ما يليق بالله ــ تعالى ــ وأنَّ ظاهرها المتعارف في حقنا غير مراد ولا يتكلم في تأويلها مع اعتقاد تتريه الله ــ تعالى ــ عن صفات المخلوق وعن الانتقال والحركات وسائر سمات الخلق .

والثاني : مذهب أكثر المتكلمين وجماعات من السلف وهو محكي هنا عن مالك [1] والأوزاعي [2] أنها تتأول على ما يليق بها بحسب مواطنها ، فعلى هذا تأولوا هذا الحديث (أي حديث الترول) تأويلين :

١- ينظر : شرح البيجوري على الجوهرة المسمى (تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص ١٠٨ لـ/ العلامة / إبراهيم البيجوري . ط / الحلبي).

٢- لفظه : .. عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ــ ﷺ ــ قال : يترل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له ومن يسألني فأعطيه ومن يستغفرني فأغفر له . (صحيح مسلم (بشرح النووي م ٣ ــ ١٥٤ طـ / دار الغد) كتاب الصلاة باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه رقم : ١٧٤١).

أحدهما : تأويل مالك بن أنس وغيره ومعناه تترل رحمته وأمره وملائكته كما يقال : فعل السلطان كذا إذا فعله أتباعه بأمره .

والثاني : أنَّه على الاستعارة ومعناه الإقبال على الداعين بالإجابة واللطف والله أعلم "هـ [3].

وأمَّا من أوَّل من السلف ــ وكما هو مذهب الخلف ــ [4] فالاضطرارهم إلى ذلك لكثرة المبتدعين وإنَّما دعت الضرورة لذلك لكثرة المجسمة والجهمية وغيرهما من فرق الضلال واستيلائهم على عقول العامة فقصدوا بذلك ردعهم وبطلان قولهم .

ولا أظن عقيدة الإمام القشيري في هذه الصفات إلا عقيدة السلف وإنَّما صار إلى التأويل للضرورة السابق ذكرها .. ويشهد لنا على هذا الكلام واحدٌ من أقرب

١- هو مالك بن أنس بن مالك الأشجعي الحميري ، أبو عبد الله [٩٣ - ١٧٩ هـ = ٧١٨- ٧٩٥ م] إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه تنسب المالكية مولده ووفاته بالمدينة كان صلباً في دينه بعيداً عن الأمراء والملوك .(الأعلام ٦-٢٥٧).

٢- هو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي [٨٨-١٥٧ هـ = ٧٠٧ - ٧٧٤ م] من قبيلة الأوزاع أبو عمرو إمام الديار الشامية في الفقه والزهد وأحد الكتاب المترسلين ، ولد في بعلبك ، ونشأ في البقاع ، وسكن بيروت وتوفى بها وعرض عليه القضاء فامتنع وكانت الفتيا تدور في الأندلس على رأيه إلى زمن الحكم بن هشام.(الأعلام ٣ - ٣٢٠).

٣- شرح النووي لصحيح مسلم م ٣ ــ ص ١٥٧ ، طـ / دار الغد . عند شرحه لحديث الترول كتاب الصلاة باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه رقم : ١٧٤١

٤- في كلٍّ من السلف والخلف قولان حكاهما البيجوري في شرحه على جوهرة التوحيد : أمَّا السلف فهم من كانوا قبل الخمسمائة وقيل : إنهم القرون الثلاثة ، الصحابة والتابعون وأتباع التابعين ، أمَّا الخلف فهم من كانوا بعد الخمسمائة وقيل : إنهم من بعد القرون الثلاثة .(شرح البيجوري على الجوهرة ص ١٠٧).

المقربين إلى الإمام القشيري وأحد من صحبه في محنته ، وأعني به الإمام الجويني فقد قال ــ رحمه الله ــ :" لو بقي الناس على ما كانوا عليه لم نؤمر بالاشتغال بعلم الكلام ، وأمّا الآن فقد كثرت البدع فلا سبيل إلى ترك أمواج الفتن تلتطم ..."هـ[1].

ومن النماذج العقدية أيضاً في تفسير اللطائف ما ذكره الإمام القشيري في تفسير قوله تعالى :(ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ)[2].

حيث قال :" والآية تدلُّ على عذاب القبر ، ويقال إنَّ أرواح الكفار في حواصل طيرٍ سودٍ تعرض على النار غدواً وعشياً إلى يوم القيامة حيث تدخل النار "هـ[3].

وفي هذا المثال تصريح بعقيدة أهل السنة في إثبات عذاب القبر لا كما يقول بعض المعتزلة والروافض [4] الذين كان لهم شوكة في عصر الإمام القشيري ولم يكن ذلك ليمنعه من قول الحق والإعلان به .

١– مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١ــ ١٦٠ . للمحدث : علي بن سلطان محمد القاري ــ ط / دار الكتاب الإسلامي ــ القاهرة .

٢– سورة غافر آية رقم : ٤٦ .

٣– لطائف الإشارات ٣ ــ ٣٠٨ وقول القشيري : ويقال إنَّ أرواح الكفار ...الخ . من الموقوف على عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، ــ ﷺ ــ ، كما أخرجه ابن أبي حاتم عنه . ينظر : تفسير القرآن العظيم .. لابن أبي حاتم ١٢ ــ ١٨١ . ط / بيروت – الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م .

٤– يستند المنكرون من المعتزلة والروافض لعذاب القبر أنَّ الميت جماد لا حياة لـه ولا إدراك فتعذيبه محال ، ويجاب عليهم – بعد ثبوت عذاب القبر بالأدلة السمعية بأن الله ــ تعالى ــ يجوز أن يخلق في جميع الأجزاء أو في بعضها نوعاً من الحياة ، قدر ما يدرك ألم العذاب أو لذة التنعم .

وفي مسألة رؤية الله ــ تعالى ــ في الآخرة نرى عقيدة الإمام القشيري فيها واضحة كما هي عقيدة أهل السنة [1].

يقول في تفسير قوله تعالى :(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾)[2].

": ناظرة : أي رائية لله ــ تعالى ــ"هـ[3].

وفي قوله ــ تعالى ــ:(كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ)[4].

يقول الإمام القشيري ــ رحمه الله ــ:" ودليل الخطاب يوجب أن يكون المؤمنون يرونه غداً كما يعرفونه اليوم "هـ[5].

إلى آخرِ تلك النماذج التي تنبئ عن عقيدة راسخة نابعة من صريح العقل وأصول النقل . لكنَّ الإمام القشيري في النهاية لم ينهج منهج الجدال العقلي في

=وهذا لا يستلزم إعادة الروح إلى بدنه ، ولا أن يتحرك ويضطرب ، أو يرى أثر العذاب عليه ، حتى إنَّ الغريق في الماء أو المأكول في بطون الحيوانات ، أو المصلوب في الهواء ، يعذب وإنْ لم نطلع عليه . ومن تأمل في عجائب ملكه ــ تعالى ــ وملكوته وغرائب قدرته وجبروته ، لم يستبعد أمثال ذلك فضلاً عن الاستحالة ".(شرح العقائد النسفية ص٩٧).

١- عقيدة أهل السنة في رؤية الله ــ تعالى ــ: أنها جائزة عقلاً في الدنيا بمعنى أنَّ العقل إذا خلى نفسه لم يحكم بامتناع رؤيته ، ما لم يقم له برهان على ذلك ، مع أنَّ الأصل عدمه ، فمن ادَّعى الامتناع فعليه البيان ، وأما الرؤية في الآخرة فواجبة بالنقل وورد الدليل السمعي بإيجاب رؤية الله ــ تعالى ــ[شرح العقائد النسفية " باختصار " ص٧٤و٧٦و٧٧).

٢- سورة القيامة آية رقم : ٢٢ ــ ٢٣ .

٣- لطائف الإشارات ٣ ــ ٦٥٧ .

٤- سورة المطففين آية رقم : ١٥ .

٥- لطائف الإشارات ٣ - ٧٠١ .

أمثال تلك المسائل وما فيها من خلافات مذهبية بل يشير إلى ما يعتقده بلطيف الألفاظ والعبارات ..

ومن المسائل المهمة للتعرف على منهج الإمام القشيري في تفسيره أنْ نرى كيف استخدم براعته اللغوية والبلاغية في استنباط الإشارات واللطائف ، وفيما يلي بيان ذلك .

المطلب الرابع :

اللغة والبلاغة في تفسير اللطائف :

لا يخفى أنّ كلّ محاولة لتفسير القرآن الكريم بعيداً عن اللغة العربية ، أو عن تراكيبها ومفاهيمها ومفرداتها ، وضوابط الجمل فيها مردودة في وجوه أصحابها ، لا تقبل بإجماع المسلمين ، ولو تركت فوضى الفهم تنطلق حيث أرادت وأبيح لكل إنسان أن يفسر فيحمل الجمل والتراكيب ، ما لا مصدر له إلاّ رأيه الشخصي أو هواه ، فإنّ معنى هذا أن القرآن سيخرج عن قواعده ، بل سيوجد من يستخرج من التوحيد شركاً، ومن يقلب كل قصة فيه لمصلحته .[1]

وبادئ ذي بدء فإنّ الناظر في تفسير الإمام القشيري سيرى مدى قدرته ، ومهاراته اللغوية والبلاغية ، حتى يرى ذلك وهو ينطبع عليه في حسن اختيار الألفاظ التي تؤدي المعنى الذي يراه في الآية الكريمة ـ بقدر طاقته ـ مستخدماً الدلالات اللغوية والبلاغية في استنباط الإشارات واللطائف . وسيرى الناظر كذلك مدى شغفه بالسجع [2] في عباراته .. وإكثاره من الاستشهاد بالشعر الذي يمتاز بالعاطفة أو الحِكَم .. ، وقد يصل بنا الإعجاب بهذه العبارات أنْ نعاود قراءتها مرة ومرتين حتى نحفظها ..

١- عبارة للشيخ محمد الغزالي ، من ندوة مجلة لواء الإسلام ـ السنة السابعة والعشرون ، العدد ٨ : ٣٧ .

٢- يعرف السجع في اللغة :" الكلام المقفى " أوْ موالاة الكلام على رويٍّ واحد ، وجمعه أسجاع وأساجيع ، واشتقاقه من سجع الحمامة ، وهو ترديد صوتها "(القاموس المحيط ١ـ ٩٣٩ مادة سجع).

" وفي الاصطلاح : تواطؤ فواصل الكلام المنثور على حرف واحدٍ أو حرفين متقاربين " الإكسير في علم التفسير ص : ٣٢٧ للإمام الطوفي ، تحقيق د / عبد القادر حسين / مكتبة الآداب).

وتأمل معي أيها القارئ الكريم هذه العبارة التي ذكرها في تفسير قوله ــ تعالى ــ:(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾)[1].

حيث قال :" إني جاعل في الأرض ..." ترجّمت الظنون ، وتقسّمت القلوب، وتجنّت الأقاويل ، وكان كما قيل :

وكم أبصرت من حسنٍ ولكن ۞ عليك من الورى وقع اختياري "هــ[2].

وعبارته في تفسير قوله ــ تعالى ــ:(مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا)[3].

:" ما أصابك من حسنة فمن الله فضلاً وما أصابك من سيئة فمن نفسك كسباً ، وكلاهما من الله سبحانه خلقاً "هــ[4].

١- سورة البقرة آية رقم : ٣٠ .

٢- لطائف الإشارات ١ ــ ٧٤ . وبيت الشعر المذكور : لــ/ محمد بن وهب الحميري (٢٢٥ هــ = ٨٤٠ م) من شعراء الدولة العباسية ، عاصر دعبلاً الخزاعي ، وأبا تمام ، وتصحيح البيت :

وكم أبصرت من حسن ولكن ۞ عليك لشقوتي وقع اختياري

وقبله : صدودك والهوى هتكا استتاري ۞ وساعدني البكاء على اشتهاري

ينظر : المستطرف في كل فن مستظرف ٢ ــ ٣٢ لــ/ شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي . ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ الطبعة الثانية ، ١٩٨٦ .

٣- سورة النساء آية رقم : ٧٩ .

٤- لطائف الإشارات ١ ــ ٣٤٩ . وفي العبارة تلخيص دقيق لقضية خلق أفعال العباد وكم كثر الكلام فيها بين أهل السنة وبين المعتزلة !

ولنتأمل النماذج التالية للتعرف على مهارة الإمام القشيري اللغوية والبلاغية في استنباط الإشارات واللطائف :

فمن اللغة ما ذكره في تفسير البسملة من سورة البقرة حيث قال :" الاسم مشتق من السمو والسِّمة ، فسبيل من يذكر هذا الاسم أن يتسم بظاهره بأنواع المجاهدات ، ويسمو بهمته إلى محالّ المشاهدات ، فمن عدمَ سمة المعاملات على ظاهره ، وفقدَ سُمُوَّ الهمة للمواصلات بسرائره لم يجد لطائف الذكر عند قالته ، ولا كرائم القرب في صفاء حالته "هــ[1].

في هذا المثال نجد الإمام القشيري وقد استفاد من هذا الاشتقاق اللغوي لـ" الاسم " في استنباط إشاراته ولطائفه .. والاسم ــ كما أشار الإمام القشيري ــ إمَّا مشتق من السمة بمعنى العلامة وإما مشتق من السمو بمعنى العلو والقول الأول هو مذهب الكوفيين والثاني مذهب البصريين "[2].

ويقول في تفسير قوله ــ تعالى ــ:(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[3]. من سورة الفاتحة :" الرب هو السيد ، والعالمون جميع المخلوقات واختصاص هذا الجمع بلفظ العالمين لاشتماله على العقلاء والجمادات فهو مالك الأعيان ومُنشيها ، ومُوجد الرسوم والديار بما فيها .

١- لطائف الإشارات ١ / ٥٢ – ٥٣ .

٢- قال العكبري :" واشتقاق الاسم عند البصريين من سما يسمو إذا علا ، فالمحذوف لامه ؛ لأنّ المحذوف يرجع إلى موضع اللام في جميع تصاريفه ، نحو سميت وأسميت ، وسمي وسمي وأسماء وأسام ؛ ولأنّ الهمزة فيه عوض من المحذوف ، وقد أُلف من عاداتهم أن يعوضوا في غير موضع ، وقال الكوفيون : هو السِّمة ، فالمحذوف فاؤه ، وهو خطأ في الاشتقاق وفيه الخلاف ، وهو صحيح المعنى "هــ.(اللباب في علل البناء والإعراب ١ – ٤٦ للعكبري ، أبو البقاء عبد الله – ط دار الفكر ، دمشق – الطبعة الأولى ١٩٩٥م . تحقيق : غازي مختار طليمات).

٣- سورة الفاتحة آية رقم : ٢ .

ويدلُّ اسم الرب أيضاً على تربية الخلق ، فهو مُرب نفوس العابدين بالتأييد ومربٍ قلوب الطالبين بالتسديد ، ومربٍ أرواح العارفين بالتوحيد ، وهو مربٍ الأشباح بوجود النِّعم ، ومربِ الأرواح بشهود الكرم .

ويدلُّ اسمُ الرَّبِّ أيضاً على إصلاحه لأمور عباده من ربيت العديم أربه [١] ؛ فهو مصلح أمور الزاهدين بجميل رعايته ، ومصلح أمور العابدين بحسن كفايته ، ومصلح أمور الواجدين بقديم عنايته ، أصلح أمور قوم فاستغنوا بعطائه ، وأصلح أمور آخرين فاشتاقوا للقائه ، وثالث أصلح أمورهم ما استقاموا للقائه .. "هـ [٢].

في هذا المثال أيضاً نرى الإمام القشيري وهو يستفيد من المعاني اللغوية للرب[٣] في استنباط الإشارات واللطائف ..

وفي تفسير البسملة من سورة آل عمران يقول ــ رحمه الله ــ :" اختلف أهل التحقيق في اسم " الله " هل هو مشتق من معنى أم لا ؟ فكثير منهم قالوا إنَّه ليس

١- العَديمُ : الذي لا شيء عنده فعيلٌ بمعنى فاعل وأعدَمَه مَنَعه ويقول الرجل لحبيبه عَـدِمْتُ فَقْدَك ولا عَدِمتُ فضلَك ولا أعدَمني الله فضلَك أي لا أذهبَ عني فضلَك ..(لسان العرب ١٢ ــ ٣٩٢) .

٢- لطائف الإشارات ١ / ٤٦ ــ ٤٧ .

٣- أفاض الإمام الألوسي ــ رحمه الله ــ في بيان معنى الرب من حيث أصله في اللغة فقال :" والرب في الأصل مصدر بمعنى التربية وهي تبليغ الشيء إلى كماله بحسب استعداده الأزلي شيئاً فشيئاً ، وكأنها من ربا الصغير كعلا إذا نشأ فعدي بالتضعيف ، ووصف به للمبالغة الحقيقية والصورية فالتجوز فيه إمَّا عقلي من قبيل " فإنما هي إقبال وإدبار " ، أو لغوي كاسأل القرية .... ويطلق أيضا على الخالق ، والسيد ، والملك والمنعم ، والمصلح ، والمعبود ، والصاحب إلا أنَّ المشهور كونه بمعنى التربية فلهذا قال بعض المحققين : إنَّه حقيقة فيه لأنَّ التبادر أمارتها وفي البواقي إمَّا مجاز أو مشترك ، والأول أرجح لأنَّ في جميعها يوجد معنى التربية ووجود العلاقة أمارة المجاز ولأنَّ اللفظ إذا دار بين المجاز والاشتراك يحمل على المجاز كما تقرر في مباديء اللغة .."هـ(روح المعاني ١ ــ ١٣٠ ط – دار الفكر – بيروت ١٤١٧ هـ ــ ١٩٩٧ م) .

بمشتق من معنى ، وهو له سبحانه على جهة الاختصاص ، يجري في وضعه مجرى أسماء الأعلام في صفة غيره ، فإذا قرع بهذا اللفظ أسماء أهل المعرفة لم تذهب فهومهم ولا علومهم إلى معنى غير وجوده سبحانه وحقه . وحق هذه القالة أن تكون مقرونة بشهود القلب فإذا قال بلسانه " الله " أو سمع بآذانه شهد بقلبه " الله ". "هـ [١].

فها هو ــ رحمه الله ــ يستنبط لطائف وإشارات من مجرد ما ذهب إليه كثير من أهل التحقيق من أنَّ لفظ الجلالة غير مشتق [٢].

ومن ذلك ما قاله في تفسير قوله ــ تعالى ــ :(قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾)[٣].

١- لطائف الإشارات ١ ــ ٢١٧ .

٢-(الله) علم لا يطلق إلا على المعبود بحق مرتجل غير مشتق عند الأكثرين ، وقيل مشتق واشتقاقه من أله كعبد إلاهة كعبادة وألوهة كعبودة وألوهية كعبودية فإله صفة مشبهة بمعنى مألوه ككتاب بمعنى مكتوب ، وأصله (إِلاهٌ) فدخلت عليه الألف واللام فبقي (الإِلـهُ) ثم نقلت حركة الهمزة إلى اللام وسقطت فبقي (أَلِلاهُ) فأسكنت اللام الأولى وأدغمت وفخم تعظيماً ولكنه يرقق مع كسر ما قبله ..(ينظر: البحر المحيط ١ــ ١٢٤ لـ/ أبي حيان الأندلسي – ط دار الكتب العلمية / بيروت – الأولى ١٤٢٢ هـ ــ ٢٠٠١ م . وروح المعاني ١ / ٩٤ ــ ٩٥ والمصباح المنير ١ ــ ٢٠ لـ/ أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي – ط – الحلبي).

٣- سورة آل عمران آية رقم : ٢٦ ــ ٢٧ .

": اللهم : معناها " يا الله والميم في آخرها بدل عن حرف النداء وهو " يا "[1] فهذا تعليم الحق كيفية الثناء على الحق ، أي صفني بما أستحقه من جلال القدر فقُل: يا مالكَ الملك لا شريك لك ولا معين ، ولا ظهير ولا قرين ، ولا مقاسمَ لك في الذات ، ولا مُساهمَ في الملك ، ولا مُعارض في الإبداع "هـ[2].

والقشيري في هذا يسير على خطىً علمية ، يبدأ من القاعدة ثم يفيض من خلالها بمواجيده وأذواقه ، وهذا وذاك يتم في ترابط عجيب وتآلف محكم .

ومن ذلك قوله في تفسير سورة الإخلاص (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤)[3].

": .. ويقال :" هو " مبتدأ ، " والله " خبره "وأحد"، خبر ثانٍ كقولهم : هذا حلوٌ حامض . الصمد : السيد الذي يصمد إليه في الحوائج ، ويقصد إليه في المطالب ، ويقال : الكامل في استحقاق صفات المدح ...

وأحد : أصله وحْدٌ ، ووِحَدٌ ، وواحد بمعنى وكونه واحداً : أنه لا قسيم له ولا شبيه له ولا شريك له "هـ[4].

١- في تفسير (اللهم) قولان للنحويين قال الفراء هي في الأصل يا الله أمنا بخير ، فكثرت في الكلام واختلطت فقيل :(اللهم) .. وقال الخليل : اللهم معناه ، يا الله والميم مشدودة عوض من ياء النداء والميم مفتوحة لسكونها وسكون الميم قبلها قال ولا يقال يا اللهم إنما يقال اللهم ومعناه يا الله .(الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي ١ ـ ٨٧ لـ/ محمد بن أحمد بن الأزهر الأزهري الهروي أبو منصور . ط / وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت ـ الطبعة الأولى ، ١٣٩٩هـ تحقيق : د. محمد جبر الألفي).

٢- لطائف الإشارات ١ – ٢٣٠ .

٣- سورة الإخلاص آية رقم : ١ ـ ٤ .

٤- لطائف الإشارات ٣ / ٧٨٢ – ٧٨٣ .

وبعد هذه التقدمة للسورة من المعاني اللغوية والإعرابات النحوية ينطلق القشيري بإشاراته ولطائفه فيقول :" ويقال : كاشَفَ الأسرارَ بقوله :" هو" وكاشَفَ الأرواحَ بقوله " الله " وكاشَفَ القلوبَ بقوله : " أحد " وكاشف نفوس المؤمنين بباقي السورة .

ويقال : كاشَفَ الواهين بقوله :" هو" ، والموحِّدين بقوله :" الله "والعارفين بقوله :" أحد " والعلماء بقوله :" الصمد " ، والعقلاء بقوله :(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) إلى آخره .

ويقال : لَمّا بسطوا لسانَ الذمِّ في الله أمَرَ نبيَّنا بأنْ يَرُدَّ عليهم فقال :(قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) . أي ذُبَّ عني ما قالوا ، فأنت أولى بذلك . وحينما بسطوا لسان الذمِّ في النبيِّ ـ ﷺ ـ تولّى الحقُّ الردَّ عليهم . فقال :(نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢)[1] وقال :(وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢)[2] أي أنا أذبُّ عنك ؛ فأنا أوْلى بذلك منك .

ويقال : خاطَبَ الذين هم خاص الخواص بقوله :" هو " فاستقلوا ، ثم زاد لمن نزل عنهم فقال :" الله " ، ثم زاد في البيان لمن نزل عنهم .

فقال :" أحدٌ " ثم لمن نزل عنهم فقال :" الصمد " "هـ[3].

ومن ذلك تفسيره لقوله ـ تعالى ـ :(فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦)[4]

١- سورة القلم آية رقم : ١ ـ ٢ .

٢- سورة النجم آية رقم : ١ ـ ٢ .

٣- لطائف الإشارات ٣ - ٧٨٣ .

٤- سورة الشرح آية رقم : ٥ ـ ٦ .

:" في الخبر :" لن يغلب عُسْرٌ يُسْرين[1]" ومعناه : أنّ العسر بالألف واللام في الموضعين للعهد – فهو واحد ، واليسر مُنكّر في الموضعين فهما شيئان .."هـ.[2]

١- قال الإمام السخاوي في المقاصد الحسنة (١– ٥٣٩ ط / دار الكتاب العربي . حديث : لن يغلب عسر يسرين رقم : ٨٧٧):" الحاكم والبيهقي في الشعب من طريق عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن الحسن مرسلا أنّ النبي خرج ذات يوم وهو يضحك وهو يقول وذكره بزيادة (إنّ مع العسر يسرا) . وهو عند الطبراني من طريق أبي ثور عن معمر ورواه العسكري في الأمثال وأخرجه == ابن مردوية من طريق عطية عن جابر موصولا وسنده ضعيف . وفي الباب عن ابن عباس من قوله ذكره الفراء عن الكلبي عن أبي صالح عنه وعن ابن مسعود موقوفاً أيضاً أخرجه عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان عن ميمون أبي حمزة عن إبراهيم عنه قال : لو كان العسر في جحر ضب لتبعه اليسر حتى يستخرجه لن يغلب عسر يسرين . بل للطبراني عن ابن مسعود مرفوعاً (لو دخل العسر جحراً لدخل اليسر حتى يخرجه فيغلبه فلا ينتظر الفقير إلا اليسر ولا المبتلى إلا العافية ولا المعافى إلا البلاء . ورواه ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي في الشعب من طريق شعبة عن معاوية بن قرة من محدثه عن ابن مسعود قال: لو أنّ العسر دخل في جحر لجاء اليسر حتى يدخل معه ثم قرأ (إن مع العسر يسرا). وكذا في الباب عن عمر موقوفاً ذكره مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب بلغه أنّ أبا عبيدة حصر بالشام فذكر القصة وقال في الكتاب إليه ولن يغلب عسر يسرين . ومن طريقه رواه الحاكم وهذا أصح طرقه . وأخرجه ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي في الشعب من طريق عبد الله بن زيد بن أسلم عن أبيه أن أبا عبيدة حصر فكتب إليه عمر يقول : مهما ينزل بامرئ شدة يجعل الله بعدها فرجاً وإنه لن يغلب عسو يسرين "هـ.

٢- لطائف الإشارات ٣ – ٧٤٤ . وقول الإمام القشيري :".. العسر بالألف واللام في الموضعين واليسر مُنكّر في الموضعين فهما شيئان " – يشير بذلك إلى هو مشهور عند النحاة من أنّ النكرة إذا أعيدت نكرة كانت غير الأولى وإن أعيدت معرفة أو أعيدت المعرفة معرفة أو نكرة كانت نفس الأولى . لكن ينبغي التنبيه إلى أنّ ذلك يكون عند الإطلاق وخلو المقام من القرينة أما إذا وجدت قرينة فقد تعاد النكرة نكرة مع عدم المغايرة نحو (وَهُوَ الَّذِي فِي=

قلت : تلك نماذج عن اللغة في تفسير اللطائف ، وبيان كيفية استفادة الإمام القشيري من دلالات الألفاظ ، وتراكيبها في استنباط الإشارات . أمّا عن نماذج البلاغة فيه .. فهي كثيرة ومتنوعة أسوق منها للقارئ الكريم ما يلي :

يقول – رحمه الله – في تفسير قوله – تعالى –: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)[1] :" معناه نعبدك ونستعين بك . والابتداء بذكر المعبود أتمّ من الابتداء بذكر صفته – التي هي عبادته واستعانته ، وهذه الصيغة أجزل في اللفظ ، وأعذب في السمع .." إلى أن يقول :" العبادة نزهة القاصدين ، ومستروح المريدين ، ومربع الأنس للمحبين ، ومرتع البهجة للعارفين ، بها قُرَّةُ أعينهم ، وفيها مسرة قلوبهم ، ومنها راحة أرواحهم ، وإليه أشار – ﷺ – بقوله :" أرحنا بها يا بلال[2]" ولقد قال مخلوقٌ في مخلوق :

يا قوم ثاري عند أسمائي   يعرفه السامع والرائي

=السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)(الزخرف ٨٤) وقد تعاد النكرة معرفة مع المغايرة نحو (وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ)(الأنعام ٩٢) إلى قوله – تعالى – (أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ) (الأنعام ١٥٦) وقد تعاد المعرفة معرفة مع المغايرة نحو (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ) (المائدة ٤٨) وقد تعاد المعرفة نكرة مع عدم المغايرة نحو (قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) (الأنبياء ١٠٨)..(ينظر : حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك ١ – ١٧٩ – ١٨٠ . ط / مكتبة الصفا / الأولى ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م).

١- سورة الفاتحة آية رقم : ٥ .

٢- أخرجه أبو داود في سننه كتاب الأدب ، باب في صلاة العتمة رقم : ٤٩٨٥ قال الشيخ الألباني : صحيح (سنن أبي داود ٢ – ٧١٥ . ط / دار الفكر . تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد . مع الكتاب : تعليقات كَمَال يوسُفْ الحوُت ، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها).

لا تدعنـــــي إلا بيا عبدها   فإنّه أصـــدق أسمائي "هـ[1].

في هذا المثال نرى الإمام القشيري وهو يتحدث بأسلوبه البلاغي فيذكر فائدة تقديم المسند إليه على المسند في قوله ــ تعالى ــ:(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فيقول:" الابتداء بذكر المعبود أتم من الابتداء بذكر صفته ..." إلى أن يقول :" هذه الصيغة أجزل في اللفظ ".

وهو بذلك يشير إلى ما ذكره علماء البلاغة في علم المعاني من أنّ تقديم المسند إليه على المسند يفيد التخصيص .. فالتخصيص من لوازم التقديم غالباً فمعنى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) نخصُّك بالعبادة ، لا نعبد غيرك ، ونخصُّك بالاستعانة منـك لا نستعين أحداً سواك [2].

١– لطائف الإشارات ١ – ٤٩ . والشعر المذكور لم أجده منسوباً وله ألفاظ أخرى منها :

يا قوم قلبي عند زهراء ... يسمعه السامع والرائي

لا تدعني إلاّ بيا عبدها ... فانه أشرف أسماء

ومنها : يا عمرو ناد عبد زهراء ... يعرفه السامع والرائي

لا تدعني إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي

ومنها : لا تدعني إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي

ولا تصفني بالهوى عندها ... فعندها تحقيق أنبائي .

(ينظر : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٢ ــ ١٩٣) ، (٥ ــ ٣٢٧) لـ/ أحمد بن المقري التلمساني . ط / دار صادر– بيروت ــ الطبعة الأولى ١٩٦٨ تحقيـق : إحسان عباس).

٢– ينظر : المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم ص ٤٨ ، ٢٥١ . لـ/ سعد الدين التفتازاني – ط – دار الكتب العلمية – بيروت – الأولى ١٤٢٢ هـ ــ ٢٠٠١ م ، ومفتاح العلوم ص ٣٣٩ . لـ/ السكاكي – ط – دار الكتب العلميـة – بـيروت / الأولى ١٤٢٠هــ – ٢٠٠٠م ، بتحقيق د / عبد الحميد هنداوي .

ثم يكمل الإمام القشيري حديثه في ثمرة العبادة في جمل سـجعية رصـينة ، ثم يقتطف من الشعر ما يؤكد المعنى ويؤصله ويزينه ..

ومن ذلك ما قاله في تفسير قوله ــ تعالى ــ(أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾)[1]

:" شبّه القرآن بمطرٍ يترل من السماء ، وشبَّه ما في القرآن من الوعد والوعيد بما في المطر من الرّعد والبرق ، وشبَّه التجاءهم إلى الفرار عند سماع أصوات الرعد . كذلك الإشارة لأصحاب الغفلات إذا طرق أسماعهم وعظ الواعظين ، أو لاحت لقلوبهم أنوار السعادة ، ولو أقلعوا عمَّا هم فيه من الغفلة لسعدُوا ، لكنهم ركنـوا إلى التشاغل بآمالهم الكاذبة ، وأصروا على طريقتهم الفاسدة ، وتعلّلـوا بأعـذار واهية ، ويحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسـهم ويسعون في الخطر بأيمانهم .

إنّ الكريم إذا حباك بوده   ستر القبيح وأظهر الإحسانا

وكذا الملول إذا أراد قطيعة   ملَّ الوصال وقال كان وكانا "هـ[2].

هذا ما قاله الإمام القشيري في تفسير هذه الآية الكريمة لم يخرج عمـا قالـه العلماء في هذا التشبيه الوارد فيها [3].

١- سورة البقرة آية رقم : ١٩ .

٢- لطائف الإشارات ١ / ٦٦ – ٦٧ . والشعر المذكور ساقه الإمام القشيري في أكثر مـن موضع من تفسير اللطائف ولم أجده منسوباً .

٣- والتشبيه الوارد في الآية الكريمة ــ على تلك الحال التي ذكرها الإمام القشيري ــ يعدُّ من التشبيه المفرق كما ذكر الإمام أبي حيان فقال :" وقد رام بعض المفسرين ترتب أحوال المنافقين وموازنتها في المثل من الصيب والظلمات والرعد والبرق والصواعق ، فقال : مثل الله القرآن=

ولم ينس الإمام القشيري كعادته أنْ يضيف في ختام تفسيره للآية من الشعر ما يوضح إشاراته حول الآية الكريمة .

ومن ذلك ما قاله في تفسير قوله ــ تعالى ــ:(أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾)[1].

:" أليس الذي قدر على هذا كله بقادر على إحياء الموتى ، فهو استفهام في معنى التقرير "هـ[2].

وما قاله في تفسير قوله ــ تعالى ــ:(كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾)[3].

=بالصيب لما فيه من الإشكال ، وعمّا هم بالظلمات والوعيد والزجر بالرعد والنور والحجج الباهرة التي تكاد أحياناً أن تبهرهم بالبرق وتخوفهم بجعل أصابعهم ، وفضح نفاقهم وتكاليف الشرع التي يكرهونها من الجهاد والزكاة ونحوها بالصواعق ، وهذا قول من ذهب إلى أنه من التمثيل المفرق الذي يقابل منه شيء شيئاً من الممثل " وقد قال قبل ذلك :" والأحسن أن يكون من التمثيلات المركبة والمعنى على ذلك أنَّ الله وصف وقوع المنافقين في ضلالتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة .. بحال من أخذته السماء في ليلة مظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق ..(البحر المحيط ١ ــ ٢٢١). بتصرف يسير

١– سورة القيامة آية رقم : ٤٠ .

٢– لطائف الإشارات ٣ – ٦٥٩ . ويأتي الاستفهام التقريري جذباً للانتباه وتحريكاً للعقول وتشويقاً إلى معرفة ما يأتي بعده من الكلام .. وكلُّ استفهام دخل على نفي فهو يفيد التنبيه وتحقيق ما بعده .(ينظر: الكليات ١ــ ١٥٨٦ ــ لأبي البقاء الكفوي – ط – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى ١٩٩٢م. والمطول ص ٤١٩).

٣– سورة المدثر آية رقم : ٥٤ ــ ٥٥

:"... الكلام على جهة التهديد ، ومعناه : فمن أراد أنْ يذكره فليذكره ، ومن شاء ألاّ يذكره فلا يذكره ، كقوله (فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ)[1]"هـ[2].

وقوله في تفسير قوله ــ تعالى ــ:(وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ)[3].

:" استفهام يراد منه تفخيم شأن هذا النجم "هـ[4].

ونموذج آخر ذكره في تفسير قوله ــ تعالى ــ:(وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)[5] .حيث قال:" إيمانهم

١– سورة الكهف آية رقم : ٢٩ .

٢– لطائف الإشارات ٣ ــ ٦٨٨ . قلت ولا يفهم التهديد في هذه الآيات إلا من خلال السياق يقول القاضي عبد الجبار :" وصيغة الأمر قد ترد ولا تكونُ أمراً ، بل تكون تهديداً ، وتقريعاً ، وإباحة ، ويعلم حاله بما تقدم من الكلام ويتأخر .. "هـ (متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ج١– ص٨٢ – دار التراث – القاهرة – تحقيق / د / عدنان زرزور). وقد علم التهديد في قوله تعالى :(كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۞ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ) مما تقدم من الكلام أعني قوله ــ تعالى ــ(فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۞ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۞ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۞ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۞ كَلَّا بَل لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ)(المدثر ٤٩ ــ ٥٣) وقد علم التهديد في قوله ــ تعالى ــ(فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ) مما تأخر من الكلام أعني قوله ــ تعالى ــ: (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً) فإنه لفظ وقع قرينة دالة على امتناع إرادة حقيقة التخيير والإذن .. وذلك لأنه لا عذاب على الإتيان بما خير فيه ، وإنما هو مجاز عن الإنذار والتهديد .. (ينظر : العلاقات والقرائن في التعبير البياني ص ١٦٨ ، ١٧٠ ، ٢١٧ ــ ٢٢٠ د / محمود موسى حمدان – ط – مكتبة وهبة – الأولى ١٤٢٥ هـ ــ ٢٠٠٥ م).

٣– سورة الطارق آية رقم : ٢ .

٤– لطائف الإشارات ٣ – ٦٨٨ .

٥– سورة البقرة آية رقم : ٤ .

بالغيب اقتضى إيمانهم بالقرآن ، وبما أنزل الله من الكتب قبل القرآن ، ولكنه أعاد ذكر الإيمان هاهنا على جهة التخصيص والتأكيد "هـ"[١].

.. إلى غير ذلك من النماذج التي تدلُّ على مهارة لغوية ، وبلاغية لدى الإمام القشيري واستيفائه لعلومهما ممَّا جعله مؤهلاً لأنْ يدلي بدلوه في تفسير كتاب الله ــ تعالى ــ.

ومن الأمور التي يفتش عنها الباحثون في أيِّ تفسير للتعرف على منهج صاحبه فيه هو موقفه من الإسرائيليات ، إذ لا شك أنَّ ذلك يطلعنا على جانبٍ من ثقافة المفسر ، ومدى أمانته العلمية في النقل ، وتمحيصه أو عدم تمحيصه فيما ينقله .

وفيما يلي التعرف على موقف القشيري من الإسرائيليات .

١- لطائف الإشارات ١ – ٥٨ .

المطلب الخامس :

الإسرائيليات وموقف القشيري منها :

تعتبر الإسرائيليات المخالفة للشرع الحنيف والدين القويم .. من أخطر ما تسرَّب إلى بعض كتب التفسير خاصة ، وإلى التراث الإسلامي عامة .. إذ هي في حقيقتها أساطير وخرافات لا تمت إلى الحقيقة بصلة [١] ..

ومما يلفت النظر ويجعلنا في حيرة من أمرنا أنَّ تلك الإسرائيليات لا تجد من بعض مَنْ نقلها [٢] أي ردٍّ أو تمحيص أو حتى بيان وجهة النظر في سبب نقلها وتسجيلها .. وهذا يستدعي دراسة مستقلة تُعنى بالأسباب التي أدت إلى ذلك ، والدوافع التي أسكتت هؤلاء عن التعقيب والتحقيق ..

وإذا كنا بإزاء هذه الدراسة في تفسير القشيري وتعرفنا على هذا المنهج العلمي فيه فإنَّنا سنفاجأ ببعض الإسرائيليات فيه دون بيان سندها أو تحقيق لما ورد فيها .. ولكن ــ والحق يقال ــ نجده يضرب صفحاً عن ذكر بعضها .

---

١ – في بيان معنى الإسرائيليات يقول الأستاذ الدكتور محمد حسين الذهبي – رحمه الله –:" لفظ الإسرائيليات ــ كما هو ظاهرــ جمع مفردة إسرائيلية ، وهي قصة أو حادثة تروى عن مصدر إسرائيلي ، والنسبة فيها إلي إسرائيل ، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم أبو الأسباط الإثني عشر، وإليه ينسب اليهود فيقال بنو إسرائيل .

ولفظ الإسرائيليات – وإنْ كان يدل بظاهره على القصص الذي يروى أصلاً عن مصادر يهودية – يستعمله علماء التفسير والحديث ويطلقونه علي ما هو أوسع وأشمل من القصص اليهودي ، فهو في اصطلاحهم يدلُّ على ما تطرَّق إلى التفسير والحديث من أساطير قديمة منسوبة في أصل روايتها إلى مصدر يهودي أو نصراني أو غيرهما .."هــ (الإسرائيليات في التفسير والحديث للأستاذ الدكتور / محمد حسين الذهبي ص ١٣ ــ مكتبة وهبة ــ الرابعة ١٤١١هـ ــ ١٩٩٠م).

٢- كجامع البيان للطبري ، ومعالم التنزيل للبغوي ، والكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي .. وغيرها .

ولنستطلع ذلك في النماذج التالية :

يقول ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله ـ تعالى ـ ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾[1]... الآيات .

حيث قال :" أوسل اللَّهُ إلى داود ـ عليه السلام ـ مَلَكَيْنِ من السماء على صورة رجلين فتحاكَمَا إليه تنبيهاً له على ما كان منه من تَزَوُّجه بامرأة أوريا ، وكان تَرْكُ ذلك أَوْلَى – هذا على طريق مَنْ رأى تنزيهَ الأنبياء عليهم السلام من جميع الذنوب.

وأمَّا مَنْ جَوَّزَ عليهم الصغائر فقال : هذا من جملته[2] . وكَنَّى الخَصْمان باسم النعجة عن النساء .." إلى أنْ يقول :" وكانت في البيت كوَّةٌ يدخل منها الضوء ،

١- سورة ص آية رقم : ٢١ .

٢- في بيان معنى العصمة ووجوبها للأنبياء ـ عليهم السلام ـ أذكر الآتيَ :" العصمة : ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها أو هي قوة يودعها الله في عبده تمنعه عن ارتكاب شئ من المعاصي والمكروهات = = مع بقاء الاختبار أو لطف من الله يحمل عبده على فعل الخير، ويمنعه عن الشر مع بقاء الاختيار تحقيقاً للابتلاء والامتحان ، وقد أجمع أهل الملل على وجوب عصمة الأنبياء عن تعمد الكذب فيما دل المعجز القاطع على صدقهم فيه كدعوى الرسالة ، وما يبلغونه عن الله إذ لو جاز عليهم الافتراء لبطلت دلالة المعجزة وهو محال . وفي عصمتهم عن سائر الذنوب تفصيل ، وهو أنهم معصومون عن الكفر قبل الوحي وبعده بالإجماع . وكذا عن تعمد الكبائر عند الجمهور . خلافاً للحشوية .. وأما سهواً فجوزه الأكثرون . وأما الصغائر ، فتجوز عمداً عند الجمهور ، خلافاً للجبائي وأتباعه وتجوز سهواً بالاتفاق ، إلا ما يدل على الخسَّة ، كسرقة لقمة والتطفيف بحبة ، لكن المحققين اشترطوا أن ينبهوا عليه ، فينتهوا عنه . هذا كله بعد الوحي ، وأما ما قبل الوحي ، فلا دليل على امتناع صدور الكبيرة . وذهبت المعتزلة إلى امتناعها لأنها توجب النفرة المانعة عن اتباعهم ، فتفوت مصلحة البعثة ، والحق : منع ما يوجب النفرة كالفجور والصغائر الدالة على الخسة . ومنع الشيعة صدور الصغيرة والكبيرة قبل الوحي وبعده ، ولكنهم جوزوا إظهار الكفر تقية . =

فَدَخَلَ طيرٌ صغيرٌ من الذهب ، ووقع قريباً منه ، وكان لداود ابنٌ صغيرٌ فَهَمَّ أن يأخذه ليدفعَه إلى ابنه ، فتباعَدَ عنه . وجاء في التفاسير : أنه كان إبليس ، قد تصوَّر له في صورة طير ، فَتَبِعَه داود ، ولم يزل الطائرُ يتباعد قليلاً قليلاً ، وداود يتبعه حتى خَرَجَ من الكوة ، ونَظَر داود في إثره فوَقَعَ بَصَرُه على امرأة أوريا وهي تغتسل متجردةً ، فعاد إلى قلبه منها شيء ، فكان هذا السبب ".. إلى أن يقول:" .. وقيل أرسل أوريا إلى قتال الأعداء فقُتِلَ وتزوج بها.." هـ[1] .

قلت في هذا النموذج : نرى الإمام القشيري وهو يذكر تلك الإسرائيليات في سبب تحاكم الخصمين إلى داود ـ عليه السلام ـ وأنهما ملكان عرَضا له بما فعله بأوريا وزواجه من امرأته .. وهي قصة ظاهرة البطلان[2]، نسجها مَنْ لا خلاق له بغية

=إذا تقرر هذا ، فما نقل عن الأنبياء مما يشعر بكذب أو معصية ، فما كان منقولاً بطريق الآحاد فمردود . وما كان بطريق التواتر فمصروف عن ظاهره ، إن أمكن وإلا فمحمول على ترك الأولى أو كونه قبل البعثة . (ينظر : شرح المواقف ٨ – ٣٠٦ (المواقف لـ/ عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي وشرحه للمحقق السيد الشريف / علي بن محمد الجرجاني ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م ، وشرح العقائد النسفية ص ١٢٧).

١- لطائف الإشارات ٣ – ٢٥٠ .

٢- هذه القصة من الإسرائيليات المرذولة التي لا تخلو من اتهام أنبياء الله بكل ما هو سيئ ووضيع .. وفيها يقول الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ:" قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها ماخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت عن المعصوم حديث يجب اتباعه "هـ (تفسير ابن كثير٤ـ٣١). وينظر أيضاً في الرد على هذه القصة : مفاتيح الغيب ١٣ / ٣٠١ـ٣٠٣ لـ/ الإمام الرازي- ط- دار الغد – الأولى١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢ م ، البحر المحيط ٧ ـ ٣٧٧ ـ ٣٧٨ ، وفي ظلال القرآن ٥ ـ ٣٠١٨ ، ٣٠١٩ ، لـ/ الأستاذ : سيد قطب ، ط – دار الشروق – السابعة والعشرون ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م).

القدح في عصمة الأنبياء ، والنيل من مكانتهم .. وكم تمنينا لو نأى الإمام القشيري وغيره عن أمثال هذه القصص ..!

ومن النماذج أيضاً ما ذكره في تفسير قوله ـ تعالى ـ(وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (١)).

:" اختلف النّاسُ في هذه الفتنة ؛ ومنها أنه كانت له مائة امرأة فقال : لأطوفَنَّ على هؤلاء فيولد من كل واحدة منهن غلام يقاتل في سبيل الله " ولم يَقُلْ إنْ شاء الله ، ولم تَحمِلْ إلا امرأةٌ واحدةٌ جاءت بشق مولود ، فألقته على كرسيِّه ، فاستغفر ربه من تَرْك الاستثناء ، وكان ذلك ترك ما هو الأَوْلَى .

وقيل كان له ابن ، وخافت الشياطين أن يبقى بعد موت أبيه فيرثه ، فَهَمُّوا بقَتْله ،-فاستودعه الريح في الهواء لئلا تصل إليه الشياطين ، فمات الولد ، وألقته الريح على كرسيه ميتاً . فالفتنة كانت في خوفه من الشياطين وتسليمه إلى الهواء ، وكان الأَوْلَى به التوكل وتَرْكَ الاستعانة بالريح .

وقيل في التفاسير : إنه تزوج بامرأة كانت زوجة مَلِك قهره سليمان ، وسَبَاها ، فقالت له : إن أَذِنْتَ لي أنْ اتَّخِذَ تمثالاً على صورة لأبي لأتسلّى بنظري إليه ؟ فأَذِنَ لها ، فكانت (تعظمه وتسجد له مع جواريها أربعين يوماً) ، وكانت تعبده سِرّاً ، فعوقب عليه .

وقيل كان سبب بلائه أنّ امرأة كانت منْ أَحَبِّ نسائه إليه ، وكان إذا أراد دخول الخلاء نَزَعَ خاتمه ودَفَعَه إليها ، وهي على باب الخلاء ، فإذا خَرَجَ استردَّه . وجاء يوماً شيطانٌ يُقَال له " صخر " على صورة سليمان وقال لامرأته : ادفعي إليَّ الخاتم فدفعته ، ولبسه ، وقعد على كرسيه ، يُمَشِّي أموره -إلا التصرفَ في نسائه- فقد منعه اللّهُ عن ذلك . فلمّا خرج سليمانُ طَالَبَ المرأة بالخاتم ، فقالت : الساعة

١- سورة ص آية رقم : ٣٤ .

المطلب السادس

منهج القشيري في استشهاده بالسنة :

بادئ ذي بدء أذكِّرُ القارئَ الكريم أنَّ لصاحب تفسير اللطائف منهجاً خاصاً يعتمد على أذواق أهل الإشارات وأصحاب اللطائف فلا ننتظر من الإمام القشيري ونحن بصدد الحديث عن منهجه في تفسيره أنْ يكون تفسيره من قبيل التفسير بالمأثور .

فكما هو واضح جليّ أنَّ تفسير اللطائف من قبيل التفسير بالرأي ، وهذا الرأي في مجمله وكثيرٌ من تفاصيله ـ يعود إلى منهجٍ علمي يعتمد على إحاطة الإمام القشيري بالعلوم التي تؤهله لتفسير كتاب الله ـ تعالى ـ.

ورغم ذلك فإننا نجد للسنة والاستشهاد بها في تفسير اللطائف مكانةً عاليةً ، فبين الحين والآخر يطالعنا القشيري بما قيل في الآية من خلال المأثور ليستفيد بذلك في تأكيد إشاراته ولطائفه . وربما وجدت أحاديث ضعيفة في هذا التفسير ولكنها بالنسبة إلى الصحيح قليلة ولا تكاد تذكر ، وفيما يلي بيان ذلك من خلال النماذج التالية :

يقول ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله ـ تعالى ـ:(وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾)(١).

:" إنّما اعتبر في ثبوت الفاحشة التي هي الزنا زيادة الشهود إسبالاً لستر الكَرَم على إجرام العباد ، فإنَّ إقامة الشهود ـ على الوجه الذي في الشرع لإثبات تلك الحالة ـ كالمُتعَذِّر . وفي قوله ـ ﷺ ـ لماعز لما قال له : يا رسول الله ـ

١- سورة النساء آية رقم : ١٥ .

صلوات الله عليك – إنّي زنيت فطهِّرني . فقال : لعلك قبّلت .. ثم قال في بعض المرات :" استنكهوه " ففي هذا أقوى دليل لما ذكرتُ من إسباله الستر على الأعمال القبيحة "هـ[١].

في هذا النموذج يستشهد الإمام القشيري بما صح من قصة ماعز وما جرى فيها من إعراض النبي ــ ﷺ ــ عنه مرة ، ومن التأكد من حاله مرة أخرى[٢].

ليدلّلَ بذلك أكثر على أنّ زيادة عدد الشهود في حدّ الزنا يتوارى خلفه لطف الله بعباده وإسبال الستر عليهم .

ومن ذلك أيضاً ما ذكره في تفسير قوله ــ تعالى ــ:(مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ)[٣].

حيث قال ــ رحمه الله ــ:" دلّت الآية على عظم رتبة الغني حيث سأل منه القرض ، ولكن رتبة الفقير في هذا أعظم لأنه سأل لأجله القرض ، وقد يسأل القرض من كل أحد ولكن لا يسأل لأجل كل أحد ، وفي الخبر " مات رسول الله ــ ﷺ ــ ودرعه مرهونة عند أبي شحمة اليهودي على شعير أخذه لقوت عياله "[٤] أبْصِرْ ممن اقترض ولأجل من اقترض ! "هـ[٥].

١– لطائف الإشارات ١ / ٣١٩ – ٣٢٠ .

٢– أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة ، باب هل يقول الإمام للمقر لعلك لمست أو غمزت رقم : ٦٤٣٨ . ومسلم في صحيحه كتاب الحدود باب من اعترف على نفسه بالزنى رقم : ١٦٩٤ .

٣– سورة البقرة آية رقم : ٢٤٥ .

٤– صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير ، باب ما قيل في درع النبي ــ ﷺ ــ والقميص في الحرب رقم : ٢٧٥٩ . وصحيح مسلم كتاب البيوع ، باب الرهن وجوازه في الحضر والسفر رقم : ١٦٠٣ .

٥– لطائف الإشارات ١ – ١٨٩ .

قلت : في هذا المثال يوازن القشيري بين غني يُسئل ليبذل وبين فقير يُسئل له لينتفع ، فيرى أنّ الأول عظيم في رتبته ، ولكن الثاني أعظم منه ؛ وذلك لأنّ الله ــ تعالى ــ سأل الغني لأجل هذا الفقير وتلك عناية الله ــ تعالى ــ به واهتمامٌ بأمره..

ثم استدلّ القشيري من السنة بأنّ رسول الله ــ ﷺ ــ مات ودرعه مرهونة عند يهودي على شعيرٍ أخذه لقوت عياله ، ولا شك أنّ أهل بيت رسول الله ــ ﷺ ــ أفضل بكثير من هذا اليهودي صاحب المال.

وربما يستشعر البعض من كلام القشيري هذا دعوة للتواكل ، وأسارع فأقول: ليس هذا قصد القشيري أبداً ، وما كان هذا حال الصوفية الحقيقي أبداً ، وإنما القصد تربية النفس على عدم المنِّ بالعطاء فربَّ آخذ أفضل من معط ، وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر فإنّ للقشيري كلاماً يطول ذكره عن حقيقة التوكل وذم التواكل أذكُرُ فيه للقارئ ما يلي :

يقول ــ رحمه الله ــ في تفسير قوله ــ تعالى ــ:(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا)[١].

:" التوكل تفويض الأمور إلى الله ، وحقّه وأصله علم العبد بأنّ الحادثات كلها حاصلة من الله ــ تعالى ــ، وأنّه لا يقدر أحدٌ على الإيجاد غيره .

فإذا عَرفَ هذا فهو فيما يحتاج إليه – إذا عَلمَ أن مرادَهُ لا يرتفع إلا من قِبَلِ الله – حصل له أصل التوكلِ . وهذا القَدْرُ فرضٌ ، وهو من شرائط الإيمان ، فإنّ الله ــ تعالى ــ يقول :(وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)[٢] وما زاد على هذا القَدْرِ – وهو سكون القلب وزوالُ الانزعاج والاضطراب – فهي أحوال تلحق بالتوكل على وجه كماله .." إلى أنْ يقول :" الواجبُ في الأسباب الدنيوية أنْ

١– سورة الفرقان آية رقم : ٥٨ .

٢– سورة المائدة آية رقم : ٢٣ .

يكون السكونُ عن طلبها غالباً ، والحركةُ تكون ضرورةً . فأمّا في أمور الآخرة وما يتعلّقُ بالطاعة فالواجبُ البدارُ والجدُّ والانكماشُ ، والخروجُ عن أوطان الكسل والجنوح إلى الفشل .

والذي يتّصفُ بالتواني في العبادات ، .. ثُمَّ يعتقد في نفسه أنه متوكّلٌ على الله وأنه – سبحانه – يعفو عنه فهو مُتَّهَمٌ معلولُ الحالِ ، ممكورٌ مُستَدرَجٌ ، بل يجب أن يبذل جهدَه ، ويستفرغ وسعَه . ثُمَّ بعد ذلك لا يعتمد على طاعته ، ولا يستنِدُ إلى سكونه وحركته ، ويتبرأُ بسرِّه من حَوْلِه وقوَّته . ثم يكون حَسَنَ الظنِّ بربِّه ، ومع حُسْنِ ظنه بربه لا ينبغي أنْ يخلوَ من مخافته .."هـ[١] .

قلت : وفي هذا الكلام كفاية ، ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى ما قاله الإمام القشيري في تفسير هذه الآية .

ومن نماذج استشهاد القشيري بالسنة وعنايته بها مؤكداً بها إشاراته ولطائفه ما ذكره – رحمه الله – في تفسير قوله – تعالى –:(مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾)[٢].

حيث قال – رحمه الله –:" هذا قريب ممّا قال النبي – ﷺ –:" من سَنَّ سُنَّةً حسنةً فله أجرها واجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سنَّ سُنَّةً سيئةً فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة [٣] "هـ[٤] .

١- ينظر : لطائف الإشارات ٢ / ٦٤٣ – ٦٤٦ .

٢- سورة المائدة آية رقم : ٣٢ .

٣- أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة ، باب الحثّ على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار . رقم : ١٠١٧ .

٤- لطائف الإشارات ١ – ٤٢٠ .

فها هو الإمام القشيري لا يزيد على ذكر هذا الحديث شيئاً .. ذلك لأنّ ما تضمنه من الوعد والوعيد هو نفس ما أشارت إليه الآية الكريمة .

وربما استشهد القشيري بما لم يصح سنداً وإنْ صحَّ في نفسه معنى[١] ، ومن ذلك ما ذكره في تفسير قوله – تعالى –:(وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)[٢]

حيث قال :" قالت عائشة – رضي الله عنها –: يا رسول الله ! إني أحبك وأحب قربك فقال – عليه الصلاة والسلام –: ذريني يا ابنة أبي بكر أتعبد ربي . وقال – ﷺ – لي وقتٌ لا يسعني غير ربي "[٣]

١- ذكر المحققون من العلماء أنّ الحديث الضعيف ينتفع به إذا كان موافقاً للمفهوم من ظاهرٍ ، أو منْ فحواهُ ، أو منْ معقولـه ، ما لم يكنْ هناك مضاد لذلك المفهوم ، وإلاّ فهـو والمروي الضعيف متروكان ، ويبحث المراد ودليله ..(ينظر : المقنع في علوم الحديث ١ – ١٠٤ لابن الملقن (سراج الدين عمر بن علي بن أحمد الأنصاري) ط / دار فواز للنشر – السعودية – الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ تحقيق : عبد الله بن يوسف الجديع . والإكسير في علم التفسير ص٣٩– ٤٣، ومناهج المفسرين د / عبد الغفور محمود مصطفى / ص : ١١٣).

٢- سورة البقرة آية رقم : ١٨٧ .

٣- للحديث سياق آخر ولفظه :" لي من الله وقت لا يسعني فيه شيء غير الله – ﷻ – . المعنى صحيح ولكن السند غير معروف . قال الإمام السخاوي في المقاصد الحسنة (١ – ٥٦٥ حديث : لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل . رقم : ٩٢٦):" يذكره المتصوفة كثيراً وهو في رسالة القشيري لكن بلفظ (لي وقت لا يسعني فيه غير ربي) ويشبه أن يكون معنى ما للترمذي في الشمائل ولابن راهويه في مسنده عن علي في حديث طويل كان إذا أتى منزله جزأ دخوله أجزاء : جزءاً لله – تعالى – وجزءاً لأهله ، وجزءاً لنفسه ثم جزءاً جزأه بينه وبين الناس "هـ).

قلت : ولكنها هنات لا تكاد تذكر في هذا التفسير ولا تقدح في منهج صاحبه العلمي كما رأينا ذلك في المطالب السابقة .

وبهذا المطلب الأخير أكون قد وصلت إلى خاتمة هذا البحث الذي حاولت من خلاله – على قدر طاقتي – إظهار قدر هذا التفسير وبيان مكانته العلمية ، وأنَّ القشيري باعتباره رجلاً من أهل الإشارة وأصحاب الذوق لم ينطلق في هذا التفسير الإشاري إلا بعد إتقان العلوم التي أهّلته لاستنباط الإشارات واللطائف .. ومِنْ ثمَّ فإنَّ هذا التفسير – بعد ما رأينا وشاهدنا فيه من الالتزام بالقواعد ، والأصول – يعدُّ من التفاسير القيمة ، ذي الإجادة العلمية [1] ..

وما صادفنا فيه من ضعيف القول فهذه عادة الخلق وكلٍّ يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب الروضة الشريفة سيدنا محمد – ﷺ –.

ولم يبق لي في هذا البحث إلاَّ أنْ أسطر بعض النتائج والتوصيات

١- جرى بيني وبين أستاذنا الجليل الأستاذ الدكتور / إبراهيم عبد الرحمن خليفة . مناقشة حول التفسير الصوفي ، وكان له اعتراضات على هذا اللون من التفسير ، لما يوجد فيه من شطحات ، وفلسفات .. لا تمت إلى علم التفسير بصلة .. لكنه أبدى قبولاً ، وتقديراً .. لتفسير اللطائف ، فلله الحمد والمنة .

النتائج والتوصيات

– التفسير الصوفي الإشاري له جذور شرعية تعود إلى عهد الرسول – ﷺ – وصحابته الكرام .

– ينبغي الفصل بين تفسير صوفي لا يقبل ظاهر المعنى ، وبين تفسير صوفي يؤكد عليه ويحرص على قيم الإسلام وروحه .

– التفسير الصوفي الإشاري كغيره من التفاسير يخضع لضوابط وقواعد علمية – وبحسب تطبيقها ، يظهر أصيل القول من دخيله .

– يُعني التفسير الصوفي الإشاري في حقيقة أمره بالتهذيب الروحي والنفسي، ونبذ الأثرة من بين أفراد المجتمع .

– التزم القشيري في تفسيره (لطائف الإشارات) بالمبادئ الأخلاقية والقواعد العلمية والأصول الشرعية .

– لا يوجد في تفسير اللطائف من شطحات الصوفية غير المفهومة ، أو غامض المعنى إلا نذر يسير جداً .

– تميز تفسير اللطائف بجمال العبارة ورقة الألفاظ وعذوبتها ..

وبعد ،،

فهذا جهدي في هذا البحث المتواضع ، أحببتُ من خلاله أنْ أشارك – ولو بالقليل – في بيان جهود بعض علماء هذه الأمة ، وأعلامها من خلال رؤية منهجية لتفسير الإمام القشيري – رحمه الله – تعالى – رحمة واسعة –.

فإن كنت أصبتُ في بيان ذلك فتلك منةٌ من الله – تعالى – على عبده ، وإنْ كانت الأخرى فحسبي تفويض الأمر إلى ربي فهو – سبحانه وتعالى – أعلى وأعلم.

وصلى الله على سيدنا محمد – ﷺ – وعلى آله وأصحابه الأخيار صلاة تتواصل أبداً ولا ينقطع منها إلينا من بركاتها مدداً ..

فرغ منه يوم الاثنين ٢٦ من ربيع الأول ١٤٣٠هـ الموافق ٢٣ / ٣ / ٢٠٠٩م.

أهم المراجع

أولاً : كتب التفسير وعلوم القرآن .

ـ الإتقان في علوم القرآن . للحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي – مكتبة دار التراث ٢٢ شارع الجمهورية – القاهرة .

ـ الإسرائيليات في التفسير والحديث للأستاذ الدكتور / محمد حسين الذهبي ـ مكتبة وهبة ـ الرابعة ١٤١١هـ – ١٩٩٠م .

ـ الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، لـ/ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام – ط – دار الطباعة العامرة القاهرة ١٣١٣هـ .

ـ الأصيل والدخيل في تفسير القرآن وتأويله رواية ودراية – د/ عبد الغفور محمود مصطفى – الأولى ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م .

ـ الأصلان في علوم القرآن . د / محمد عبد المنعم القيعي ـ الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦ م بدون ذكر اسم المطبعة .

ـ الإكسير في علم التفسير للإمام الطوفي ، تحقيق د / عبد القادر حسين مكتبة الآداب .

ـ البحر المحيط لـ/ أبي حيان الأندلسي – ط دار الكتب العلمية / بيروت – الأولى ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١ م ـ البرهان في علوم القرآن. لـ/ الإمام الزركشي . مكتبة التراث ، بدون تاريخ .

ـ تفسير القرآن العظيم .. لابن أبي حاتم ١٢ ـ ١٨١ . ط / بيروت - الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م .

ـ تفسير القرآن العظيم للتستري ط / دار الكتب العلمية . بيروت ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م .

ـ تفسير سورة النور لابن تيمية . ط – دار مطابع الشعب .

ـ التبيان في أقسام القرآن لـ/ ابن قيم الجوزية – ط دار الفكر .

ـ تفسير القرآن الكريم للإمام محمود شلتوت – رحمه الله – ص٥٣ ط – دار الشروق الحادية عشرة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

ـ تفسير ابن كمال باشا (سورة الأنعام) . تحقيق ودراسة وتعليق د / عبد الوهاب عبد العاطي عبد الله . ط / دار الطباعة المحمدية . ط / الأولى ١٩٩١م .

ـ التفسير والمفسرون الأستاذ الدكتور/محمد حسين الذهبي .مكتبة وهبة – السادسة . ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ م .

ـ الجامع لأحكام القرآن لـ/ الإمام عبد الله بن محمد بن أحمد القرطبي . طبعة خاصة بترخيص من دار الشعب دار الريان للتراث .

حجة القراءات لـ/ عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة " أبي زرعة " ط – مؤسسة الرسالة – بيروت / الثانية ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م) .

ـ الدخيل في التفسير لـ/الأستاذ الدكتور/ إبراهيم عبد الرحمن خليفة . ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م بدون ذكر المطبعة .

ـ دراسات في التفسير وأصوله د / محي الدين بلتاجي – دار مكتبة الهلال – بيروت ١٩٨٧م .

ـ دراسات حول القرآن الكريم د / إسماعيل أحمد الطحان – ط / مكتبة الأقصى / الطبعة الثالثة سنة ١٤١١هـ / ١٩٩٠م .

ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، لـ/ العلامة أبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي – ط – دار الفكر – بيروت ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م .

ـ روائع البيان في علوم القرآن د/ محمد محمد إبراهيم العسال – دار الطباعة المحمدية – القاهرة – الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م .

ــ الفوز الكبير في أصول التفسير لــ / حجة الله الدهلوي . ط دار قتيبة ــ بيروت ــ دمشق ١٤٠٩ هــ ــ ١٩٨٩ م .

ــ في ظلال القرآن، لــ/الأستاذ : سيد قطب ،ط – دار الشروق– السابعة والعشرون١٤١٩ هــ ــ ١٩٩٨ م .

ــ كيف نتعامل مع القرآن العظيم د/ يوسف القرضاوي – ط دار الشروق– الرابعة ١٤٢٥ هــ ــ ٢٠٠٥ م .

ــ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ./أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، ط – دار الفكر .

ــ الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها . لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي ــ ط / بيروت .

ــ لطائف الإشارات للإمام القشيري – ط . الهيئة العامة للكتاب – تحقيق وتعليق : د / إبراهيم بسيوني . ــ

ــ معجم المفسرين تأليف / عادل نويهض ــ ط – مؤسسة نويهض الثقافية – الأولى ١٤٠٤ هــ ــ ١٩٨٤ م

ــ متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار – دار التراث – القاهرة – تحقيق / د / عدنان زرزور).

ــ مدخل إلى مناهج المفسرين د/ محمد السيد جبريل . ط / أولى ١٤٠٨ هــ ــ ١٩٨٧م .

ــ مفاتيح الغيب لــ/ الإمام الرازي– ط– دار الغد – الأولى١٤١٢هــ ــ ١٩٩٢ م .

ــ المحرر الوجيز. ط – دار الكتب العلمية – بيروت – الأولى ١٤٢٢هــ / ٢٠٠١م .

ــ مناهج المفسرين. د/ عبد الغفور محمود مصطفى جعفر . الثانية يوليه ٢٠٠٤ م بدون ذكر المطبعة .

ــ المبادئ العامة لتفسير القرآن . د / محمد حسين على الصغير– ط – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – ط أولى ١٤٠٣هــ ــ ١٩٨٣ م.

ــ مناهل العرفان في علوم القرآن الشيخ/محمد عبد العظيم الزرقاني.دار الفكر/بيروت ــ ١٤٠٨هــ ــ ١٩٨٨م.

ــ متشابه النظم في قصص القرآن الكريم مقارنه وتحليل . د / عبد الغني عوض الراجحي ، مخطوطة بكلية أصول الدين – القاهرة / تحت رقم : ٧٦.

ــ النكت والعيون . للإمام الماوردي . ط / دار الكتب العلمية – بيروت .

ــ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للإمام فخر الدين الرازي – ط – المكتب الثقافي للنشر والتوزيع بمصر – الأولى ١٩٨٩م .

ثانياً : كتب الحديث الشريف وعلومه :

ــ الإحسان في ترتيب ابن حبان لابن بلبان ط / مؤسسة الرسالة ــ بيروت ١٤١٤ هــ ــ ١٩٩٣ م .

ــ الجامع الصحيح المسند من أمور رسول الله ــ ﷺ ــ وسننه وأيامه (صحيح البخاري) ، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري الجعفي ، ط – دار ابن كثير– بيروت – الثالثة ١٤٠٧هــ ــ ١٩٨٧ م .

ــ الجامع الصحيح ، لــ / أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري (صحيح مسلم) ومعه شرح النووي المسمى المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ./ دار الغد ــ الأولى ١٤٠٩ هــ ــ ١٩٨٨ م .

ــ الجامع لــ/ معمر بن راشد (الملحق بمصنف عبد الرزاق) . بيروت – الثانية ١٤٠٣هــ ــ ١٩٨٣ م .

ـ الجامع لشعب الإيمان ، الإمام البيهقي – ط – دار الكتب العلمية – بيروت / الأولى ١٤١٠ هـ .

ـ الزهد ، لـ/ عبد الله بن المبارك – ط – دار الكتب العلمية – بيروت ، بتحقيق / حبيب الرحمن الأعظمي .

ـ سنن أبي داود ، للحافظ / أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي . ط – بيروت .

ـ سنن ابن ماجة ، لـ/ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني . ط – دار الفكر بيروت .

ـ الطبقات لـ/ ابن سعد . ط / بيروت .

ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، لإسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي ، ط / دار إحياء التراث العربي .

ـ كنز العمال للعلامة / علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري . بيروت – الخامسة – ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل ، ط – مؤسسة قرطبة بالهرم – مصر ، و – ط – المكتب الإسلامي – بيروت الرابعة ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م .

ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لـ/ الإمام الهيثمي . مكتبة القدس .

ـ مسند الفردوس لـ/ الديلمي . ط / الريان .

ـ مصنف ابن أبي شيبة . ط / دار الفكر ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ .

ـ المقاصد الحسنة لـ/ الإمام السخاوي . ط / دار الكتاب العربي .

ـ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح .للمحدث:علي بن سلطان محمد القاري ـ ط / دار الكتاب الإسلامي ـ القاهرة .

ـ المقنع في علوم الحديث لابن الملقن (سراج الدين عمر بن علي بن أحمد الأنصاري) ط / دار فواز للنشر السعودية ـ الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ تحقيق : عبد الله بن يوسف الجديع

ـ نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول . للحكيم الترمذي ط / الريان ـ القاهرة

ثالثاً : كتب التاريخ والتراجم :

ـ الأعلام . لـ/ خير الدين الزركلي – ط – دار العلم للملايين – بيروت – الثامنة ١٩٨٩ م .

ـ البداية والنهاية لـ/ الإمام / ابن كثير . ط / دار الحديث – الخامسة – ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م).

ـ السيرة النبوية لابن هشام ط / النور الإسلامية .

ـ سير أعلام النبلاء ، لـ / الإمام الذهبي – مؤسسة الرسالة / بيروت – الطبعة التاسعة ١٤١٣ هـ .

ـ طبقات الشافعية لابن السبكي . ط / بيروت .

ـ فوات الوفيات لـ/ محمد بن شاكر الكتبي . ط : دار صادر – بيروت . الطبعة : الأولى – ١٩٧٤ م . تحقيق : إحسان عباس ، وسير أعلام النبلاء ١٨ – ٢٢٧ .

ـ الوافي بالوفيات . لـ / صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي . بيروت – الثانية – ١٤١١هـ – ١٩٩١م .

ـ وفيات الأعيان لـ/ ابن خلكان . ط / دار صادر – بيروت ١٩٠٠ م تحقيق : إحسان عباس .

رابعاً : كتب اللغة .

ـ أساس البلاغة لـ/ أبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد ، الزمخشري جار الله –ط– الهيئة العامة للكتاب – الثالثة ١٩٨٥ م .

ـ التعريفات لـ/ علي بن محمد ابن علي الجرجاني . ط / دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ. تحقيق : إبراهيم الأبياري

ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب لـ/الثعالبي .ط / دار المعارف – القاهرة ـ الطبعة الأولى ،١٩٦٥م .

ـ حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك . ط / مكتبة الصفا / الأولى ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م .

ـ الخصائص لـ/ ابن جني . ط / عالم الكتب . وفصل المقال في شرح كتاب الأمثال ١ـ ٣٢٦ ـ لـ/ أبي عبيد البكري .ط / مؤسسة الرسالة – بيروت ـ الطبعة الثالثة ، ١٩٨٣ م .

ـ الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي لـ/ محمد بن أحمد بن الأزهر الأزهري الهروي أبو منصور . ط / وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت ـ الطبعة الأولى ، ١٣٩٩هـ تحقيق : د. محمد جبر الألفي .

ـ شرح شافية ابن الحاجب ، للاستراباذي (رضي الدين محمد بن الحسن ، ت ٦٨٦ هـ) ط – دار الكتب العلمية – بيروت .

ـ العلاقات والقرائن في التعبير البياني . د / محمود موسى حمدان – ط – مكتبة وهبة – الأولى ١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٥ م .

ـ القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز آبادي ، نشر مؤسسة الرسالة – الثانية ١٤٠٧ هـ .

ـ الكليات ـ لأبي البقاء الكفوي – ط – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى ١٩٩٢م .

ـ كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي . ط / دائرة الشئون الثقافية والنشر – الجمهورية العراقية – ١٩٤٨م منشورات وزارة الثقافة والإسلام .

ـ اللباب في علل البناء والإعراب للعكبري ، أبو البقاء عبد الله – ط دار الفكر ، دمشق – الطبعة الأولى ١٩٩٥م . تحقيق : غازي مختار طليمات .

ـ لسان العرب لابن منظور – ط – دار صادر – بيروت – الثالثة ١٤١٤هـ القاهرة .

ـ المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم . لـ/ سعد الدين التفتازاني – ط – دار الكتب العلمية – بيروت – الأولى ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م .

ـ مفتاح العلوم . لـ/ السكاكي – ط – دار الكتب العلمية – بيروت / الأولى ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م ، بتحقيق د / عبد الحميد هنداوي .

ـ المعجم الوسيط مادة نهج . مجمع اللغة العربية – مطبعة مصر القاهرة ١٣٠٨هـ / ١٩٦٠م ، والطبعة الثالثة / ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .

ـ مقاييس اللغة لـ / أبي الحسين أحمد فارس بن زكريا – ط – دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي – القاهرة – الأولى ١٣٦٨هـ .

ـ المصباح المنير لـ/ أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي – ط – الحلبي .

ـ المستطرف في كل فن مستظرف لـ/ شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي . ط : دار الكتب العلمية ـ بيروت . ـ الطبعة الثانية ، ١٩٨٦ .

ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لـ/ أحمد بن المقري التلمساني . ط / دار صادر- بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٦٨ تحقيق : إحسان عباس).

خامساً : كتب العقيدة والثقافة والفقه وأصوله

ـ إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول ص ٢٧٦ ، ٢٧٧، لـ/ محمد بن علي بن محمد الشوكاني – ط – دار الفكر / بيروت ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م).

ـ أسباب اختلاف الفقهاء د / سام بن علي الثقفي . ط / دار البيان للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦ م .

ـ أصول البحث العلمي ومناهجه د/ أحمد بدر ص ٣٣ – الطبعة السابعة سنة ١٩٨٤ الناشر وكالة المطبوعات الكويت – توزيع دار القلم بيروت .

ـ تاريخ التصوف الإسلامي . د / قاسم غني . ط / مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠ م

ـ دراسات معاصرة عن الإسلام والمسلمين د / محمد غلاب . ط / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة .

ـ الرسالة القشيرية – ط / دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م .

ـ روضة الطالبين وعمدة المفتين لـ الإمام النووي . ط / بيروت سنة ١٣٨٦هـ .

ـ شرح العقائد النسفية لـ/ سعد الدين التفتازاني ، ومعه كتاب العقائد النسفية لـ/ نجم الدين النسفي السمرقندي – ط – المكتبة الأزهرية للتراث – الأولى ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠ م .

ـ شرح البيجوري على الجوهرة المسمى (تحفة المريد على جوهرة التوحيد لـ/ العلامة / إبراهيم البيجوري . ط / الحلبي).